

ذاكرة عشوائية

جميل الرويلي

قصص و أشياء أخرى ...!

منتدى المعارف
alMaaref Forum



ذاكرة عشوائية!

قصص وأشياء أخرى...

جميل الرويلي

ذاكرة عشوائية!

قصص وأشياء أخرى..!

منتدى المعارف

alMaaref Forum



«جميع الشخصيات الواردة في هذه الرواية هي
من نسج الخيال ولا تمت إلى الواقع بصلة، وأي
تشابه في الأسماء أو الأحداث هو مصادفة ليس
إلا. كم إن الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا
تعبر بالضرورة عن وجهة نظر منتدى المعارف»

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنتدى المعارف
الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٤

ISBN 978-614-428-076-8

للتواصل مع المؤلف: ibn.sabeeh@gmail.com

منتدى المعارف

بناية «طيارة» - شارع نجيب العرداتي - المنارة - رأس بيروت
ص.ب: ٧٤٩٤ - ١١٣ حمرا - بيروت ١١٠٣٢٠٣٠ - لبنان
بريد الكتروني: info@almaarefforum.com.lb

المحتويات

٩	عودة إلى التل الشرقي!
١٣	كائنات تشريحية!!
٢١	«أفلامنا هي أسامينا!»
٢٧	ليلة الهروب من أميرة!
٣٥	قَتَلْتُ لأنهم قَتَلُوا!!
٤٣	أنا آسف... أيها المجرمون!
٥١	متطوع بالحزن!!
٥٩	خالد بن الوليد الذي علمني القراءة!
٦٣	قُبلة بكُور!
٦٧	لأجل الحب يا ميمي!!
٧٣	كنت أتابع الدودو!

- عقل يحتضر!! ٧٩
- لوحة حمراء مومضة!! ٨٣
- منطقة خضراء!! ٩١
- لاجئ اجتماعي! ٩٩
- المركز هو اللا شيء!! ١٠٧

الذاكرة ليست حدثاً مكتسباً لا يقبل التشكيل!..
الحياة لا تلقننا ذاكرتنا و لكن تمنحنا ماديها!..
الذاكرة فرصة مفتوحة الأمد للاستدراك على الوعي!..

وحين تصنع ذاكرتك..

بالتأمل..

بمزج التجارب..

بملاحظة التفاصيل المبهذرة الجميلة فيها..

فأنت تصنع جنتك أو نارك التي لن تستطيع الفكك منها!!

«المؤلف»



عودة إلى التل الشرقي!

«حين تتوقف عن مطاردة أحلامك...

فإن أحلامك ستبدأ تطاردك..»

ديز ديل ريو



كانت المرأة العجوز تقول لهم:

- لا تبعدوا!! إلبوا عند التل الشرقي!!...

حين كانت السعادة لا تحتاج إلى مبررات والابتسامات لا تُشتري بالتذاكر، لا يملكون إلا أيديهم الصغيرة ورغبتهم النقية في اللعب فيحملون أسماءهم في صدورهم ويذهبون!!

يخدشون وجه الصخر بأصابعهم، يكتبون أسماءهم، ويرسمون قلوبهم الصغيرة وشيئاً من زخرفات الرودا ويقول بعضهم لبعض:

- عندما نرحل سيمر أناس أغراب من هنا وسيعلمون أن ثمة أناس قبلهم كتبوا هذه الأشياء!

يتتابهم شعور لذيذ بأن هناك من سيعلم أنهم مروا!!...

وأن هناك من سيعرفهم!!...

لا يعلمون أن في الدنيا عسسٌ شرٌ يقتفون أثر العابرين ليغتالوا المدبرين من ظهورهم! لا يعلمون أن للتاريخ لعنة قد تخرج من شق حجر صغير خطوا عليه يوماً ما أسماءهم! لا يعلمون أن الأشرار في هذه الحياة يزورون حتى التاريخ ويحرفون الآثار، أو ربما يسرقونها ويبيعونها على سائح ضاف

دوراً مفضولة ليرحل بها بعيداً وراء البحار! لا تعلمون أن
الحكومات احترعت البطاقة الشخصية والصمة الإلكترونية فقط
يعرف الناس، وتعرف منى وكيف تحصرهم حين يهربون من
أسمائهم!!

رسم أمهرهم اسمه الرباعي كاملاً قبل الجميع، بينما لم
يسنطع بقية لأصقال سوى كتابة أسمائهم الأولى، فبقية
أسمائهم حُذراً على الصحور! مات الذي كتب اسمه لم دعي
بعد عشرين عاماً في حادث سير وبقية الأسماء الخُدح على
قيد الحياة. كأنه كان يعلم أنه أقربنا إلى النسيان!...

مرت السنين وحاءت الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي
فيحُث عن أصدقاء اسل الشرقي! بحثت عن أسمائهم التي كانوا
يرسمونها على الصخور ليعرفها الناس..

فلم أحدهم!!

سألت عنهم من قد يعرفهم، وإذا بهم يكتنون خنف أسماء
وهميه وقالوا لمن كشموا له أسماءهم:
- الويل لك إن أخبرت أحداً بأسمائنا!!..

فتركهم وعدت إلى التل الشرقي!...

ندكرت مقولة سكاسو. «كل طفل يولد فناناً، ولكن المشكلة
كيف يبقى فناناً حين يكبر!!». حين نكر نفقد القدرة على رسم

الأشياء، لأن الأشياء ذاتها قد تحولت إلى معدي كثيرة يصعب
حصرها! حين تكبر نفقد القدرة على التعبير عن أنفسنا، لأن
الكذب والخوف والماضي المثخن بالخبت، كل واحد منها يهز
اصبعه الغليظة أمامنا ويقول.

- الويل لكم إن عَلم الناس بأسمائكم!!...

عدت إلى الـل الشرقي لأكمل الاسم الحديج الذي تركته
قبل خمسة وعشرين عاماً طالما بُني في النهاية سألتحق بصاحب
الاسم الرباعي وأموت! عدت لأنني لم أستطع الهرب أصلاً بعد
أن أصابتنى لعنة الكتابة منذ تلك اللحظة الأولى التي نقشت فيها
اسمي على التل!...

الكتابة!...

ذلك الداء الذي يشبه أكل الشاة المسعورة لصوفها، رغبة
ملحة شعرية الذات واقتناص لحظة خالدة. أن تلقى القصص على
روحك في أعلى منحنيات نشوتها وإخفاقها!

وأن تعود لتنفش اسمك باقصة كل مرة على التل الشرقي
ولا تتوب!...

ولن بعثيني من سيموت أولاً هذه المرة!!...

* * *

كائنات تشريحية!!

«الكتابة امتاح جرح ماء»

كافكا

أجلس وحيداً في بيتي كبرغوث الكتب! أفتح رواية كائنة سعودية، ربحها الدين، الهيئة، تحب شاباً يمس قبلياً، البنت يتعاطى الحشيش، حفلة رقص محتلطة في متراحة مع قارورة «بلاك ليبل»، ثم تُتعت الفتاة إلى الخارج، فتتحول إلى ملاك ناجح، وتعود شهادتها للوطن المليء بالتأويل وتنتهي الرواية!!

لم يعد لدينا وقت لبقراً كتاباً، لأن المقاطع الإباحية قد نسي عن مثل ذلك الكتاب! في السابق كنا نقرأ لأنها كانت الوسيلة الوحيدة لحشو فراغنا البليد لا أكثر، حتى جاء العالم الافتراضي فمحوه شيئاً على بيض نسف فيه في هدر أنفسنا! لا مجال لتفاهين اليوم في سوق لتفاهة المحلي، فهو مشع باعتادات من كن بفاح الدنيا! لم تعد للمعرفة قيمة كلك التي نحدث عنها سيابورا حين عرّف السعادة «هي فرح المعرفة!»، فلم يعد للمعرفة فرح ولا حتى مأثم أو عزم لبياكي عليها. أهرب من شذوذي الاجتماعي إلى «الاستراحة» وأترك الكتب! تلعب البالوت وأأ أشجع كالأطفال الذين يجمعون الكور في الماريات المهمة حلف خطوط التماس!!

أضيق ذرعاً بصراخهم الطفولي الساذج، فألتقط جهاز التحكم وأقلب قنوات التلفزيون! يحرج على الشاشة شاعر

نتلوى وبتأوه في «مشحه» من عذاب الحياة التي لم يذق منها
إلا العس حين وُلِدَ وملعقة الذهب في فمه! يمثل دور الإنسان
الشفاف، وهو طلمة من ظلمات بعضها فوق بعض، تجسدت
على مصصة باعها له حيوان مثله! يقرعي المشهد كثيراً فأطمنئ
التفريون وأنا أتمتم من لم يستمع لصوت بحطم عظامه تحت
جنارير لحية، فلا يقرعنا بلحديث عنها!

أنظر هي وجوه الموم في الاستراحة فلا أرى إلا وحوهاً
كوحه كمار قريش في مسلسلات رمضان وهم يضحكون حول
امائدة ببلاهة وجشع وبادون أين «النيز» أيتها «القارية» ولكنهم
استدلوا ذلك بلعب لورق والمعسل وصرحات «حمر يا ولدا».

أنظر للإعلام فلا أرى إلا وحه أنى دلالة مهرج البلاط، فيصين
بي المكدن ولزمان درعاً، فأهرب إلى الفضاء لتتلقفي «حباية
وسلامة» حارياً يريد من عند المثلث، وقد اندلقت لحومهما من
ملاسهم تحدثني عن الفن والتنوير والثقافة وحقوق الإنسان! يا
إلهي! ما هذا الحو لثقافي المتعص تحت أودية النفعية والتصنّع
والاستعراض الفارع!!؟

يضيّق بي الزمان والمكدن والكتب والبيت والاستراحة
فأهرب بي الذاكرة، إلى الزمان السعيد الأول الذي تعلمت فيه
الملاحظة وهاجس الأدب! إلى المرحلة الثانوية تحديداً، حين

خرجنا إلى مختبر المدرسة في مادة الأحياء والأستاذ متجهز
للتجربة الحديدية، ولم أكن أتصور أنها تتجاوز قشرة بصله على
مجهر مدرسي!

دخلنا المختبر فأحضر الأستاذ حمامة جميلة فوضعها على
الطاولة ثم وضع على أمها قطعة مليئة بمادة محدره فنامت! أخذ
مشرطاً فشق صدرها وهي حية فأصابت بشيء من القرف
ولخوف وهو يفح أضلعها ثم يفتح صدرها والطلبة يتساءلون:
هل تشعر بذلك؟ وهو يطمشهم أنها لا تشعر بشيء، بينما كب
أستاءل: هل سيصلح ما أفسده من جسدها؟ كيف سيصلح ما
أفسده من جسدها؟ فكرت في سؤاله عن ذلك ولكن خشيت
أن يكون الرد: «لن يصلح شيئاً، سترميها في القمامة»... فقم
أسأل!!

فتح أضلعها وأشار إلى قلبها الصعبر وهو ينص وينض،
وهو يخبرنا بعلومات سمجة لا نجهلها ولا تستحق كل هذه
لبشاعة لنفهمها! كان هم الأستاذ أن يدون في دفتر تحضيره
الذي سيوقع عليه المدير أنه أجرى عملية نشريح حية للطلبة!

لأول مرة أشعر بأن الإنسان كائن همجي، ولأول مرة أشعر
على نحو حسي بطبقية الكائنات على هذا الكوكب، فالإنسان
يفتح صدر حمامة وهي حية لمجرد أن يحرق حفنه أوياش، لا

يفكرون إلا بلحظة صغير الحرس، بأن قلب الخدمة في صدرها وليس في بطنها أو رجلها أو رأسها!! شعرت أن الكائنات تعابي كثيراً بسبب عدم قدرتها على السيطرة على الإنسان، وانتابني حالة هلع ألقت بظلالها على وجهي وأنا أتصور بأن الله سيسأل ذات يوم. ماذا فعلتم بهذه السلطة والفوقية التي منحها لكم؟

انتهت التجربة ولم يخبرنا ماذا سيصع بالحمامة فهي حتماً غير صالحة للأكل بعد أن رش في بطنها مواداً كيميائية كثيرة، ولا أضه أيضاً سيخيظ صدرها من حديد! حمسا الكتب وخرجا من المختبر وقنعت نفسي بأنه ليس من وظيفتي التفكير بمصير كل الأشياء!!

الآن أفهم لماذا يحب أن أكتب!!...

نحن نكتب لأننا حمائم نجارب على طاولة الحياة!...

هكذا بكل ساطة!...

الكتابة ليست حالة ترف عقلي! الكتابة ليست وردة يعلفها الكاتب في ياقة «مشلحه» يترين بها ولا أكسسواراً يخضع للون حداء الكاتبة أو غلاف هاتفها المحمول! الكتابة قلق وحمودي يمارس نفسه، هي جوهر التجربة والجرأة على الوصول إلى جواهر الأشياء!

نحن من وجدت الحياة فينا المثال المناسب لتشرح لفحة

الشر أن قلوبنا في صدورنا، وأن الآدمي كائن حي يشعر ويتألم ويفكر! كلما تكلمت عن شيء في صدري تذكرت نظرات تلك الحمامة وهي تنق وتعود إلى الموت من حديد، والأسود يشير إلى تجاوزيف صدرها! نحن نكتب لأسوأ أكثر الكائنات وضوحاً في تمييز تركيبنا كشراً

أكتب! فدرك أن تكتب وتُضي عمرك منسائلاً عن كل شيء حولك وكأنك مكلف بمصح سرائر أحاسيس الشر، أنت أكثر الكائنات بساطة وسهولة ووضوحاً في محتواه، لهذا فأنت مثال جيد على طاولة التشريح!

لقد أخرب أستاذ الأحياء بأنه ليس كل كائن صالح للتشريح، لأن هناك كائنات معينة فقط يمكن الوصول إلى أحشائها بسهولة وتكون تراكيب أجهرتها أكثر وضوحاً وتديراً، وتحتوي تراكيب جسدها على أكثر لمقرر المدرسي! أنت كذلك من دون الناس كنت صالحاً لما تفعله الآن، لأنه يسهل الوصول لأحشائك، ولأنك تحتوي أكثر المقرر الحياتي! الكاتب الحقيقي هو الذي يكتب ولديه يقين تام أنه لن يكون صالحاً ليعيش بعد ذلك! يكتب بوضوح انتحاري، بصدق تشريحي كذلك الحمامة تماماً!! هذا قدره! الله خلقه ليحوص التحفة ويتحدث عنها بيسم خلق لآخرين ليعيشوا!!

عليك أن تتنسم، إذْ، كلما كنت وأن تشبر إلى أحشائك
بوصوح، فهذه رسالتك لأسمى وهذه قيمتك ولن نصلح بغير
ذلك! عليك أن تكرر الشرح أكثر، فأكثر فمن يقفون حولك عسى
طاولة القراءة يراقبون عملية التشریح، طينة أعباء يحسون أنك
معاق يتبرع بعضوه المعطل!...

* * *



«أقلامنا هي أسامينا»

«المتقف هو من اكتشف شيئاً أكثر تشويقاً من الجنس»

هكسلي



دخلت إلى مكتبة الجامعة في حامية الثرور واسمعا، وكان لدي بحث في مادة الإنكليزي وكانت الأيام حينها هي أيام الامتحانات لأغلب طلاب الجامعة. جلست أبحث في المكتبة، وحين مررت بركن القراءة وجدت صديقي جالساً يقرأ، وكان يفترض به أن يكون الآن في قاعة الامتحان في هذا الوقت تحديداً، فاستغربت من وجوده! اقترت منه لأرى، وإذا به يقرأ رواية كان قد حدثني عنها سابقاً، ويدعو أنه في منتصفها الآن كما ظهر من الصفحة. سألته بدهشة.

- ألا يفترض بك أن تكون الآن في قاعة الامتحان؟

نظر إلي بدهشة مثل دهشتي، وقال:

- أووه! أتصدق أنني سببت الامتحان؟

رففته بامتعاض ومضيت، وفي المساء قررت الذهاب إلى هذا المخبر لأرى كيف هو، فحس يدخل في عالم القراءة ينسى حتى الأكل والشرب! دخلت عليه غرفته فوجدته يقرأ الرواية نفسها وليس على وجهه أدنى علامة من علامات الشعور بالذنب!

كانت العرفة «سكراناً ثقافياً». الكتب مكتومة في كل مكان ومن كل الأصناف يستشء كتب المفردات الجامعية، فسألته عن كتب الجامعة فأخبرني أن رفاقه يعلمون أنه لا يستخدمها، وكما ضاع كتب لأحدهم جاء وأخذ من كتبه! قلت له ألا يحجل من نفسك؟ نترك أهلك وعدلتك في السمان لتغيب هما عن الامتحانات من أجل قراءة روية؟ فرد سرود وثقة: مُحِب لمعرفة مؤيد من الله يا عزيزي ومأتخرج قبلك!

نعم لقد تخرج ولكن ليس قبلي وكان تخرجه شيئاً بشه المعخرة! هذا الشخص عرفته أكثر من أي صديق احرا عرفت حتى روحه في التعبير، فحين يكتب لي أي شيء على باب غرفتي في سكن لطلاب، أعرف أنه هو من كتبه من دون أن يدوّن اسمه فكنت أعرف شخصيته من عبارته!

صديقي هذا لم يكن حالة شاذة! لدي بقيين أن هناك طائفة من البشر موبوءة بادهن والفكير وهذه الطائفة تختلف نتائج وياتها من شخص إلى احرا عندما تجد شذاً ترك الرياض غالبري والصيرفي مون واراشد مون وقد تهلس شعر رأسه وهو مدحس وبحكه وبفكر عن أسباب انهيار الشيوعية أو اختراع البشر لأسطوره حورية ابهر انني تفنقد أثمن ما في امرأة، السقيين والمحدث، ثم بوعل في ذلك ويحعبه شعله

الشاغل، فلا بد أن ثمة نبيحه عبر عادية لصراع داخلي غير
عادي جعله يفعل ذلك!

عندما يرفض كارل ماركس أكل علاج الدمامل لأنه يحد
من قدرته الذهنية ويقبل بأن يكتب ثمانمائة صفحة من مسودة
كتابه رأس المال وهو واقف، لأن الدمامل تمنعه من الجلوس،
فلا بد أن ماركس يؤمن تماماً أن ما لديه من نتائج لصراعاته
الداخلية أهم بكثير من التفكير في معاناة تأليف موسوعة فلسفة
وهو واقف محني الرأس يحط ويمكراً

هذه الطائفة البشرية التي تحترم صراعاتها الداخلية وتنصت
إلى نتائجها، طائفة ليست بالكبيرة، ولكنها موجودة ونلمحها هنا
وهناك، ونعرفها من سيماها ومن نحن قولها! شخصياً، أستبشر
عندما أحد أحداً من هذه الطائفة المصابة بداء التفكير المزمن
وأنظر إليهم وإلى نفسي كم ينظر أصحاب ذوي الاحنياحات
الخاصة لبعضهم البعض كم تقابلوا على قارعة الطريق!

أفكر بالفعل بناء منظمة ندعو إلى وضع دستور خاص لهذه
الكائنات تحت عنوان «ذوي التفكيرات الخاصة!». دستور
يمنحهم بعض الاحترام والتقدير لطروقتهم العقلية التي جعلتهم
أقل تعلقاً بالواقع العلفي، فلا يلزمون بالوقوف في طابور
الانتظار، ولا يكلمون بحلب الخبز من المخير، ويحق لهم

الروح من دون مراسيم تقليدية عنه تَضَع وقتهم الثافه الذي
يعتصرونه ثميناً!

أمثال هؤلاء الناس هم الذين يصنعون التنوع في الحياة
ويمنحون المجتمع «نكهة الشربة» بينما نقية البشر ليسوا إلا
سحاً متماثلة تشبه علب الببسي، الشكل ذاته، والمكونات ذاته،
والاستخدام ذاته!

عندم أجلس، كما تصفني روجتي «مونس حالي»، أكتب
وأقرأ ويراني الآخرون على أنني أدرس العث السحف مع أبي
في الحقيقة «عالق بالقاع» ولا أحد من يسمعي في مثل هذه
الحالة إلا الكتابة!

هناك شغف من الأفكار والأحاسيس بداخل كل إنسان
يحاول رعايته والاهتمام به' المشتتون ذهنياً يضخون بنظامهم
الخارجي في سبل تنظيم داخلهم الممروق' هذا ما يمنحهم
نكهتهم الخاصة، ويجعل لهم طعماً غير صعب الآخري، لأن
بداخلهم خليطاً معقداً من الصراعات الحادة والنتائج المختلفة
خليطاً لا يمتلكه من كان داخله داخلياً مؤدجاً على الاعتبيديات
والمستلمات ومهم الحياة الأصلية العامة!

يقول حوزف حرب:

"شو بدنا بالأسامي؟..."

الأسامي كلام!...

عينا هن أسامينا!!..."

هذا صحيح جداً! أعيننا تشبه شواطئ العراق، تمر
الأحاسيس عليها عاربه! وبو كانت اعين شيئاً آخر لكات رسولاً
صدقاً لا يكذب!

و إن كانت روم تحترق وقد مات بيرون وروما لم تمت،
- "عبيها نقابل" كما يقول محمود دروش، فكثير من الناس
لذير تخذلهم قدرتهم على التعبير، يلجأون إلى أعينهم لتعتبر
بدلاً منهم، وإن كانت لأعس هي الأصدق، ولكنها لا تستطيع
قول كل شيء ولا يستطيع قراءتها كل أحد!

أم وإن كانت لأعس لا ترى، فأقلام «هي أسامينا!!»..

لأننا حين نكتب لأنفسنا لن نكذب ولن نتحقق!

* * *



ليلة الهروب من أميرة!

«بعد وُلدت مع حاجة عظيمة للحصول على العاطفة والقدرة على منحها». .

وكذلك كل أنثى!»

أوهري هيبورن



رأيت فيما يرى الراوي أنها كانت ليلة الخميس، ولم يكن من عاداتي الذهاب خروح سكن الجامعة إلا إلى مدسه الحُر، وكنت في ثالث سنة لي في الجامعة، وفي هذه الليلة جاءني قريب وقال بأنه داهب إلى الدمام حيث يسكن فلان وفلان وفلان وكلهم من أقربائي، غير أنني لا أواصلهم ولا أطيع الذهاب إليهم. حرحت معه بعد أن ألح علي وهو يعدد محاسن الحروح والذهب للكوريش، وأني أعش في عالم محزون من العرلة، وأن علي أن أكون «شداً سوياً» يجيد ممارسة أفعال الشب!

عند وصولنا إليهم كانوا يتهينون للحروح إلى كوريش الدمام، وكانوا يحدثون عن أي الأماكن أكثر ازدحاماً، وأين تكثر مواض الرية، وكنت أكتفي بالاستماع كطفل ينصت إلى عجائب بهلوانية يذكرها له اكمار من أهله وهم يذهبون به إلى الملاهي أو لسيرك! انتهى الأمر على أن «جريرة المرحح» هي المكان المناسب! وفعلاً توجهنا إلى هناك وورلنا، وكل شخص يتأبط يد صديقه الحميم وهو يهمس له «شوف هناك!!» إلا أن لم يكن أحد يتأبطني ولم أكن أتأبط أحداً!

كانت ارطوبة راصحة سيباً مع هواء شه بارد، وكان الجو

يحتلظ بصحب الأطفال وهدوء العوائل الحليسة، وبور الأصواء
المخارجية الرنقالي يخلط برزاد الرطوبة فيبدو احمراره وضحا،
وكانت المسطحات الخضراء تحيط بالمطعم والكفينيرب في
مستصف الجزيرة والساس من حولهم، وكان هناك ممشى
مرصوف بجانب البحر.

مررب بالمدحل، وصادف أن كان هناك حمس فتيات يقف
بجانب فتاة مقعدة، وما إن رأت الفتيات مجموعة من الشباب
قادمة وعلمن أيس ستجهون حتى تحركن في اتحاهم بفسه،
وحذاهن تقول للفتاة المقعدة. «أميرة حبيتي شوي ونرجع»^١ كل
واحد من أصدقائي صار يهمس في أذن صديقه ويلقي إليه
بالتعليمات السريعة لاستغلال الفرصة، ولا أدري لماذا نظرت
إلى تلك الفتاة المقعدة التي تركها حلفهن وكان هي عيها شيء
من لقهر الدفين المستسلم.

كانت في قراءة الحادية أو الثالثة والعشرين من العمر،
وكانت تفهم جيداً ما يحدث، وتتمنى لو أن لها قدمين ثمشيان
لتحرك خصرها النحيل في طابور صديقاتها، واشباب يهرون
رؤوسهم إعجاباً بها. نظرت إليها ربما لأنني مثلها معاق أيضاً!
ونكبي معاق عسياً من ممارسة حماقة أكبر من حماقتهم، حماقة
يسمونها الحياة!

أصدقائي تقدموا بخطواتهم بسرعة وجراه وحماقة،
فاستحييت أو أفعل مثلهم فوقفت، وعندما نظرت أمامي وجدت
نظراً إلي فابتسمت لها في البداية «سمة مشفق عليها، ومواسي
لها، وساحر مما يفعل أصدقائي وصديقاتها على مرأى من
الناس، فابتسمت وعلمت ذلك من عينيها، ولم أكن أعلم أنني
ضعيف لذلك الحد، فقد تحولت هذه الفتاة في عيني إلى أجمل
هبة في الجزيرة! نداركت نفسي وحشت أن تمهم أنني أعزلها،
فتأمل في شيء لا أستطيع مسحها إياه فأريدها حرباً إلى حزنها،
فتحركت وأدريت ظهري لها، حتى دخلت في كومة من الأشجار
لمحيطه بالمضعم وأنا استرق النظر إليها لأرى هل جرحه
نصرفي هذا؟

أخذت تدور على كرسها وتثبت يديها على عجلاته
وتنظر يميناً وشمالاً، ثم سكنت وأدريت طهرها إلى الجهة
التي ذهبت إليها. أخذت أراقبها من بعيد والأطفال يلعبون من
حولها بالكرة، وبعد ربع ساعة تقريباً مدت يديها فألقوا إليها
بالكرة وأخذت تلعب معهم، ثم قررت العائلة العربة معها أن
ترحل، فرحل الأطفال والكرة وبقيت أميرة وحيدة تنتظر
صديقاتها، فشعرت بمرارة الوحدة والعجز الذي تشعر به الآن!
في هذه اللحظات مر عامل الكفيتيريا، وكان عائداً من

إيصال طلب لعائلة م في آخر المسطحات الخضراء، فدته العمة
تريد أن تطيب شيئاً فتحت حقيبتها اليدوية تتعطيه القود ويبدو
أنها نسيت أن تصطحب القود معها فأشارت له بعد أن فتشت
شنطتها بأن يذهب فذهب!

طال انتظارها لصديقاتها وكثر توافد الشباب إلى الجزيرة،
وكلما نظر إليها شاب تكلم مع صاحبه فكنت أسطيع أن أفهم من
حركاتهم السخيمه أن أحدهم يقول للآخر: «والله حايث أن م
ترصى بك إلا هذي!». كانت هي تشعر بذلك، فأخذت تحرك
عجلات المقعد لتبتعد عن المدخل، وكانت تقف على أرض
مرروعة بالنجيل، فكان منظرها وهي تدير المحلات بصعوبة
ورأسها يهتز، منظرًا مخحلاً تفوح منه رائحة العجر والضعف
والنقص، خصوصاً وأنها فتاة في مكان عمّ لم إن استطاعت أن
تصل إلى شجرة قريبة فوارت حلمها عن المدخل ووقفت،
شعرت برعة بالذهاب إليها ولكنني حجبت من أفعل ذلك!

توجهت إلى شاك الكفيتيريا وكان حلف ظهرها، فاشترى
عصيراً مثلحاً فجاء طفل في العاشرة من عمره وكان يبدو مرحاً
للغاية فتحرأت عني طله ففتت له: «أنا رايح للسيارة أحيي
أغراض نسيتها فيها، عشت الشاصر تودي العصير هذا
لزوجتي؟». فقال الصفل «وينها؟»، فأشرت إلى الفتاة، وقلت

له. "إذا عطيتها العصر قل لها هذا عطائي اياه زوجك وقال لي روح ليلي حالسة على الكرسي وقول لها هذا من زوجك حبيبك". فانتسم الطفل وفي عييه شيء من الحجل، وقال: «هذا من زوجك حبيبك»، فقلت: صح! شطره. فذهب وهو سعيد بهذه المغامرة السحرية وترك أن المكان وعدت إلى مكاني القديم خلف الأشجار.

كنت أستطيع أن أرى انتسمة عييه من على بعد، أو هكذا خيل إلي، وقد أدارت الكرسي باتجاه الكمبيوتر، ثم أخذت تشرب من العصر. مرت مدة غير قصيرة وهي شرب وتنظر يميناً وشمالاً، ولعل مشوار الطفل هذا قد جعله يحبها أيضاً، فعاد إليها ومعه بالون منفوخ وآخر جديد، فأخذت تنفخ البالون، ثم تكلمت مع الطفل فأخذ يدفع معها الكرسي فتوجهت نحو الرصيف المحيط بالكمبيوتر فعلمت أنها تبحث عني!

كان الطفل ينظر من وراء الكرسي وهو بهز رأسه، كأنه يقول «ليس هذا» كلما مر شخص من أمامه وفجأة تركها وذهب بركض لينظر في وجه رجل كان مديراً ظهره لهما، فأطل في وجهه ثم عاد وهو بهز رأسه فتبينت أنها تبحث عني بالفعل، فشعرت بخوف من أن تجدي فأصطر سبرير ذلك بأي تصرف أو أن يفصحني الطفل بين الناس، فتوجهت إلى اسباب الأحرار

للمطعم وصعدت إلى لدور العلوي، وأخذت أراقبها من هناك
ثم اختفت بين الناس!

مرت لحظات وإذا بها تعود ولكن هذه المرة مع زميلاتها
الهاربت منها وكانت علبة العصير ما رالت في يدها، وفي هذه
الأناء كان أصدواني قد عادوا أيضاً فعمدب إن أنزل وأن أمر
من أمامها وكنت حجلة، فأنا أعلم أن لي في محيلتها صورة
معلقة على حدار وقد كُيب تحها «هذا الشخص مطلوب» فما
إن رأني حتى اتسمت عيناها الحميتان من وراء الناب فطرت
أنا إلى عمة العصير وابتسمت فعلمت الآن أنني يقيناً من فعل
ذلك، فشعرت بارتباك وهرجة كسرة تحتاحها، فاطلقت مسرعاً
إلى أصحابي وأنا مسرور جداً، وهم يقولون

«والله شكلك لاقى لك بلوى!!»

فقلت: «يمكن!!».

كنت سعيداً تلك الليلة وكنت أشعر فعلاً أنني عاشق ميم،
وكنت أعلم أيضاً أن أميرة الآن محتصر علبة العصير وتشعر
بأنها من أحمل نساء لأرض وأنها عاشقة ميمة، وكان هذا
يكفيني!....

لم نجمعنا شهوة حسدية، لم نعت بي ولم أعبت بها،

وكانت تعلم أنني لا أريد منها أكثر من ذلك، وأنا أعلم أيضاً
أنها لا تريد مني أكثر من ذلك...!

وكان هذا يكفيها...!

* * *

قَتَلْتُ لِأَنَّهُمْ قَتَلُوا!!

«حين يتذكر سنكتشف كلنا أننا حقيقا...»

بعد أن احتفى الخيال والقصص، ووقفت الحياة لشرح لنا بوضوح!»

مارك توين

كان حديثهم منذ العروب عن رحله الصيد التي ستكون الليلة' وكان هو في الساعة من عمره ينظر للكار في بيت الشعر وقد أخرجوا الأسلحة، رشاشات وصادق وكذب صيد. وصعدوا صحن كبيراً وصبوا فيه الكيروسين لغسلوا أسلحتهم ويقوموا بتنظيفها وهو يرقب فكلهم يغسل الرصاص ففعل كان يسمح الرصاصه بقطعة قماش مبللة بالكروسيين ثم يصعها في صحن فارغ وهو ينظر إليها بريبة ويساءل كيف ستحترق جسد الأرنب هذه الليلة وأي أرنب ستكون هذه الرصاصه من نصيبه؟ وهذه؟ وهذه أيضاً؟

وحين اشتد سواد الليل تحجر الجميع وحُدد المكان وحُدد السائق والرامي وكانت لسيارة حمس سوبرمان وانطلقوا! الجميع متحفز ومتوتر وكان مدحسهم الوحيد هو الحشيه من عدم وجود صيد هذه الليلة مع أن الأرانب حيها كانت متوافره جداً، وكان هو لا يدري بأي شعور سوف يعيش هذه التجربة. كانت شيئاً يشبه النورط بركوب فطار السوب، هناك متعة لا شك، لكنها على ما يبدو متعة مخيفة! لم تمر نصف ساعة تقريباً إلا والسادق يصبح هذه هي! هذه هي! الأرنب الأرنب! فثار كلب الصيد بضرب رأسه بالراحاج يريد النرول والجميع يصرخون: يمين..

يمين... لا... لا... يسار... يسار! والسيارة تقهر من حجر إلى
حجر والجميع مستميت في تنيع الأرنية وهي تركض وتركض
تحاول النجاة بكل ما تملك من قوة وحيلة، تحاول النجاة
بلحمها... بحسدها! شعروا أنها ركضت بما فيه كفاية فأطلقوا
كلب الصيد فأخذ يتبعها وهم يصيحون: أنظر إليها سيطر بها
الآن! والفضل يراهم مبتهجين، فيمثل عبيهم دور المستهجن نعم
نعم سيطر بها الآن! وللأسف فقد طفر بها بالفعل! سمع الصل
صرخها كصراخ المولود لحطة ولادته فقصع جسده والكلب
يعضها ويرفعها ثم يصر بها بالأرض، فزف أحدهم سكين يحمله
بيده فذبحها فسكنت!

كانوا يتحدثون بعدها عن مدى براعة الكلب في الاصطياد
وكم هو مطمع وماهر، وكان الطفل يتساءل: لماذا تحون كلنا
الودود إلى سفع شرس بهذه الطريقة الدموية؟ ما المشكلة بينه
وبين لأرنية لكي يطاردها ويقتلها بكل هذه لقسوة؟ كيف انمو
الكلب معهم على أن هذه الأرنسة يجب أن تموت؟ وككن مرة
يسائل فيها لم يحد جواباً، فاكتفى بنمثيل دور المسحوم مع
الجماعة!

مر وقت ليس بطويل بعد أن اصطادوا عدداً من لأرانب
فقرروا الاصطياد بالبنادق والرشاشات! كانت الأرانب كثيرة

وكل رامٍ أحرح رأسه من فتحة الرحاح الحاسبي يطلق
الرصاص والأرانب يموت تباعاً والطفل يتساءل: إن كان عدداً
أكثر من ألبي رأس من العسم وأكثر من مائة معبر، فلماذا
يفعلون كل هذا؟ سألهم: «ليش طيب لارم أرانب؟» فقالوا بأن
طعمها لذيذ! للأسف كان ذلك الطفل آخر من يفكر في طعم
الأشياء التي يأكلها، ولم يكن يتصور أن أحداً قد يعابي كل
هذا العناء والرعب والقتل لمجرد أن يأكل شيئاً يظنه لذيذاً!
حاول الطفل تجاهل التفكير كثيراً في هذه النقطة، فهم رجال
كبار ولا شك أن لكلمه «لديد» قيمة واعتبارات أخرى لا
يعرفها إلا الكبار!

عادوا ليبت الشعر بأكثر من عشرين أربعاً بعضها مذبوح
وبعضها مرقته البنادق، وحين جلسوا يتمحصوها كان يطر
لحببت اسحديد الكروية الصغيرة لتي تحشى بها طلقات
«الخرطوش» هذا بها قد ملأت أحساد الأراس، بطونها وأيديها
وأرحلها وحتى أعينها! بدأوا بتنظيف الصيد، وكان الطفل يعمل
معهم ويقطع اللحم معهم ويشويه، ثم جلسوا جميعاً يأكلون
ويقولون له: رأيت كم هي لذيده؟ فقال: نعم لذيده! يا الله كم
هي لذيدة! مع أنه يرى طعمها عادياً لا يحتلف عن الدجاج في
شيء، لكنه أراد أن يشارك الآخرين «شوة المرح بالانتصار»

حتى وإن كان انتصاراً مهماً غياً بالنسبة إليه! قامت النساء بصرخ
بقية الأرائب، ودعي الجيران من أصحاب بيوت الشعر
المحاورة، والجميع تحدث عن تفاصيل المعامرة وكم هي
أرائب برية جديدة!

خلد الجميع إلى النوم، ومع حيوط المجر الأولى لحظة
زرقة لأفق قام الطفل ليذهب إلى الحلاء، فأعجبه المنظر من
حوله فقرر أن يطبل المشي وأن يصعد مكاناً مرتفعاً ليرى
المساحات من حوله، وحين نزل قمزت أرب صغيرة من شجرة
كانت في طريقه، فانبعث شوة معامرة ابارحة في صدره فصاح
بشكل لا إرادي: الأرب! الأرب! وهي تركض وهو يركض
خلفها ولم تعب عن نظره، فهي صغيرة لا تكاد تحس الركض،
وفجأة وحد كلب صيد الحيران تركض أمامه ينتظر منه الإشارة
فأشار الصبي إلهها فانقض عليها انكلب فأمسكها! لم يكن
يتصور الطفل بأن هذا سيحدث وأنه سيتمكن من فعله بمفرده،
فأقل من مصدق ومكذب وانترع الأرب من بين فكي الكلب
فكانت في الرفق الأخير، فبحث في حبيه عن سكين فسم يحد
فظر لبيوب الشعر فإذا هي مسافة نصف كيلو أو أكثر وسر
هناك وقت كانت رغبته في أن يصبح كبيراً يصطاد الأرب كما
يفعل الكبار رغبة جارفة وقد تحققت، ولكي تكتمل لا بد أن

يكتمل العمل بلذبح الأرنب كما كانوا يفعلون ليلة البارحة فانقض
بأسنانه يمزق حلقها حتى ذبحها!

انتهى المشهد! وقف الطفل ويده الأرنب الصغير والدم
على بدبه وشفتيه وكلب صيد الحيران واقف ينظر! سأل نفسه
من جديد: لماذا قتلها هذا الكلب أيضاً كما فعل كلبنا ليلة
البارحة مع تلك الأرانب؟ من أخبره أن يفعل هذا بهذه الطريقة؟
لماذا انضم إلي حير صرحت؟ هر الكلب ديله ثم مضى يمشي
بزهو وشوة متحفاً إلى بيت الحيران فتساءل الصن من حديد:
لماد، إدا، يقل هذه الكائنات بكل هذا الحماس إن كان لا يريد
مها شيئاً أصلاً؟

بحث الطفل عن نعليه تحت ورقة الفخر وعاد بالأرنب
متوجهاً إلى بيت أهله وكانت حيوط الشمس لم تبزع بعد،
وكننت الأجوة قد بدأت تتداعى إلى نفسه!

وجد هجساً بداخله يقول.

- أنت أيضاً فعلت كما فعل كلب الصيد! لماذا طاردت
لأرنب؟ ولماذا أمسكت به؟ لماذا دبخته بأسناتك؟ فالكلب نفسه
سم يفعل ما فعلت. ألم تكن ليلة البارحة يقشعر جسدك لصراحها
مستعته سر فكي كللكم الشرس؟ ثم ألم تلاحظ أنها صغيرة

وأن أمها ربما تبحث عنها الآن؟ وربما كانت تراقبك وأنت
تفتريها بأسمائك؟

توقف لطفل عن المشي! شعر بأنه تورط مع نفسه قبل أن
يتورط مع الأرنب! نظر حوله لعله يرى أمها فلم ير شيئاً نظر
إلى يديه المملطختين بالدم والأرنب الصغير ممزق الحلق بين
يديه، فاعتراه شعور مقلق بأنه قد تغير، وأن ذاته لم تعد كما
هي من قبل! لم يتصور أن بداخله كل هذه الطدقة الكامنة من
تجاهل مشاعره والجراءة على إيذاء الآخرين من دون مبرر، حذراً
يقوم فيه بذبح الحيوانات بأسنانه! قرر عدم الاستمرار في هذا
الامر فوجهه لتل صغير فدفن الأرنب تحت كومة من الحجارة
وعاد إلى بيت أهله ليعمل كفيه خلسة ثم يتام قبل أن يكتشف
أمره أحداً

كر الطفل ومرت به السون، وتكررت استجابة نفسها مع
أشياء كثيرة يفعلها فقط لأن الناس يفعلونها، ويرتكبها فقط ليشب
أنه قادر على فعلها كما يقدر الآخرون، ويمارسها فقط لأجل أن
لا يكون خارج مجموع الناس من حوله! ربما لأنه ككل البشر،
يخشى البقاء وحيداً، كان يدفع ذلك الهاجس بالممارسة
الاعتباطية التي يجمع الناس أكثر مما تجمعهم الفكرة والمبدأ
الواضح المصقي المصنوع، فإن كانت الممارسة قد جمعت

الإنسان والحيوان، فمن باب أولى أن نجتمع البشر بشعر تماماً
كما اجتمع معه كلب الجيران على صيد ذلك الأرنب من دون
أي موعد أو ترتيب!

صحيح أنه حاول مرراً أن لا يكون ظلالاً يحاكي أفعار
الآخرين، لكي لا يندم يوماً ما على سيرته الداتية التي يخشى أن
تصبح شيئاً لا يحصيه ولا يمثله...

وما زال يحاول....

لكنه للأسف، ما زال حي الآن يدفن الأراب...!

* * *

أنا آسف... أيها المجرمون!

«مفسر ندمي الوحيد في هذه الحياة هو أنني لست شخصاً آخر.»

هرهام بيل

لا أعرف شيئاً يوفض الإنسان لتنازل عنه بشدة مع أنه لا يدري ماذا سيصنع به، مثل الحرية! ربما لأن الحرية تمنحنا فرصة الهروب المفتوح من اختيار إلى آخر ومن فشل إلى آخر ولا تؤطرنا على مكان وزمان معين يذكرنا كل حين بهمنا السابق!

لحرية هي الميكانيكية المائية الكامنة في شربنا والتي لم تفلح مراحل النمو في تحويلها إلى عظم حامد أو لحم متكامل، وستبقى دائماً تحاكي بهم الماء إلى الحريد الحر، وتذكرنا بأنا بالفعل لم نكن سوى عطرة ماء نتحت عن نفحة «الهوى» ذات شباط بارد!

في مدرسة سحن الأحداث كان الطلبة، منهم من حُكم عليه بالقصاص، ومنهم من سيجرح قريباً، كم هو مرعب الشعور بأن هناك ثمة من بحث رأسه ويفكر. هل سأسمح له بالعيش، أم أنه يجب أن يموت؟ ولي الدم الذي أصبح ولي الحياة! وُضع صك الحكم في جيبه ووُضعت أنت في الزنرانة طملاً يُرْتى للموت!

تلوك مرارة الصعف وحالة «الحياة مع وقف التنفيذ»، وأنت

فمكر في الوضعية التي ستتخذها حين يهوي سيف لقصاص
على عمك في لحظة قصيرة، مشحونة بالأمني ولآلام الطوال!

شرحت لهم الدرس وكانوا يتابعون معي نظام عجيب
ويشاركون بحذية، وكان أحدهم ضحك الوجه بشوش المحب،
كأن وجهه معجون حظه! كان أكثرهم ضحكاً ومراحاً، فحدثني
نفسى أن أمنحهم فرصة للكلام! تكلم الضحك وقال: هـ
سحرح بعد شهر وهذا سيحكم عليه اليوم بثلاثة أشهر.

كنت أؤدي سعادتي لهم بابتسامة عريضة أتبعثها بنظرة
مسائه إلى صاحب الوجه الحطبي لألقي عليه سؤالي الأبله:

وأنت؟!

فقال: قصاص!!....

شعرت لبرهة أن الرمز توقف وأولجت تحت جند وجهي
صورة كنيه لي نفتحمني بشدة كلما صدمت بحزن مليء بالخية
مع أبي سبيت فمي مبتسماً على آخر عهده، فظهر وجهي شكل
يدعو إلى الشفقة! جمعت شتاتي بسرعة، فلاحظ هو ذلك، وقال
وهو م رال يبتسم بحرأة ويثقل في دفتره من السبورة:

«أكيد تقول ياستاذ أنت أكثرهم ضحكاً، وأنت محكوم

قصاص ١١٩»، ثم سكت ولم يشرح هذا التناقض الذي أشار إليه
فعلت أي لست الأول الذي يقف هذا الموقف!

قلت بلهجة عية سادحة مفضوحة السحب والدعاء البارد:

«لا يا شيخ، بكرة يفرجها ريك!»....

نظر إلى وجهي الذي اكتسبه شيء من الاضطراب
المحبول، فابتسم وأعاد نظره إلى الدفتر، فعرفت أنه قد اجتاز
مرحلة البحث عن المشفقين إلى مرحلة الشفقة عليهم، كما
تصعروا الشفقة وفشلوا في ذلك!

خرح بهم يقولون: «يعطيك العافية يا ستاد جميل»...

خرجت من عندهم وأنا اشعر بكم كبير من الإنسانية التي
لا أحدها إلا عندهم، فكل تصرفاتهم «نقية وصادقة»! لا أدري
لماذا عندما نتورط بالحرر أصبح أكثر شربة وأكثر حميمية
وألمة، ربما لأن الحزن يكسر الكبر والطعان في نفوسنا!

في يوم وجدته يصطحع في محراب مصلى المدرسة
ويغطي وجهه سجادة الصلاة! لا يتكلم، فكل الكلام بالنسبة
إليه الآن صر من العث، فقد صدر قرار تنميد القصاص،
وقريباً ستم نقله إلى السجن العام لينتهي كل شيء!

حاولت أن أتقدم إليه وأحدث معه، فسألت نفسي ماذا أقول؟ شعرت بأد عظامي لا يصف منها عظم على عظم، وشعرت أن قلبي تحوّل إلى تجوري فارغ في دكن مفلس لم يعد يهنم!

نعم! هو ذات الطالب الذي أدرّسه من قبل وأمارحه ويمارحني! لم يتق اليوم محال لكل هدا، إنه جثة الآن تتأهب للتذبح الحلال!

كان يتأهب للموت بشحاعة وهو يقول:

«والله ما همّي غير لعحوز والشايب!»....

وفي احتفال مدرسي أشد أنشودة «تلايب» فقطّع قلوبنا حتى اغرورقت أعين كل لحاضرين!

نمّ القصاص قبل مده بذلك الوجه الحطي البشوش! لقد قتلوا «أحمد»! فصنوا رأسه عن جسده بالسيف! عدت بعدها لأجد حلابا وحواه النقية منهم قد اعتلاها شحوب حرس ولمحتهم بكهة مُرّة باهتة، وخضوع يفرق في أعينهم، يثير بداخلي سخط السحرية من بعض حتميات الحياة!

تكلم أحدهم ذات مرة فقال عبارة فيها كلمة «رأسي» ووجأة

نَقَصَتْ ملامحه رعشة خوف سريعة فعلمت بأنه تذكر القصص! كل شيء كان مشحوناً. القلم يذكر بالسيف ومسح اسبورة يذكر بالمرت والتلاشي والحديث العابر عن شؤون الحياة قد يفهمونه سخرية وقحة بهم!

وفي يوم وحدث أحدهم وهو محكوم عليه بالقصاص أيضاً يقف بجانب باب غرفة بعض الزملاء وكان أحدهم يصرح

«والله الهلال...» فيرد الشبي: «والله النصر...!»...

والطالب يتسم بمرارة، فقلت له: «وش فيه ؟؟».

فقال: «ياهنّي خلي السال!!»...

حاولت أن أتجاهل الأسى الساخر الذي يلوح في عينيه
فقلت:

لماذا لم نزل إلى المهاجع مع زملائك وقد انتهى الدوام؟!

فقال:

سمعت أنك ستسافر إلى الرياض ليوم براً فحشيت أن
نموت في الطريق وأنت غاصب مني بسبب شجاري معك اليوم
حول درجتي! فتقدم وقّلت رأسي!

شكرته وحاولت أن أصرفه من المكان بأسرع وقت ممكن،
لأنني كنت سأهاجر في أي لحظة، فقد تكتس الدمع في حلقي
كالحجارة، فمع أنه هو الذي قد يموت في أي لحظة، لم يحطر
ببالي أبدأ هل هو عاصب مني أم راصٍ عني؟!

أنا آسف أيها المحرمون!!...



متطوّع بالحزن!!

شخصية المرء هي قدره،

هرقليطس

بعد ليلة حافلة صاخبة في حفل زفاف ركبت سيارتي وتوجهت من القرية التي كان بها الحمل إلى قرية أخرى تقع على الطريق السريع المؤدي إلى المدينة التي أسكن فيها. كنت حين أصل إلى لقرية الثانية سأعطف شمالاً مع الطريق السريع باتجاه المدينة. كل شيء كان على ما برام، وكنت سعيداً وقد سررت كل طائفتي من الصبح في حفل الزفاف، فحالتجت نفسي راحة حمية.

فحاة اشتعلت أنوار المكاح في السيارة التي أمامي واحرقت بشكل سريع فقللت سرعتي، وحين مصت السيارة أمامي رأيت شيئاً على الأرض منطخاً بالدم. كان الطريق حاليّاً، فحدثني نفسي بالعودة إلى ذلك الشيء لرؤيته والتحقق منه، فلما أقلب وجعت السيارة على حافة الطريق نزلت واقتربت على ضوء السيارة وإذا بها قطعة متوسطة العمر قد مرت سيارة على ظهرها فانكسر وأصبح نصفه كقرص العجين والدم يجر من فمها وأنفها وهي تنظر لي تنظرات تسول أي شيء له علاقة بالراحة، كت أشعر بها وهي تقول «أرجوك عدلحي أو اقتلي... أجهز عني»!

أول شيء خطر بالي أسي حين كت سعيداً في حفل الزفاف

كانت هذه القطعة تعيش هذه اللحظات نفسها ولم يعلم بها أحد، فقد تعرضت للحادث منذ ساعة أو ساعتين! لم أسطع الإمساك بها فقد كس جسدها شبه مفتت، فسحبها من ذيلها إلى حافة الطريق وهي تنزّ وتبعث مواءً يمزق القلب! كم هو صعب أن يحكم عليك بالعذاب المحض، ليس الموت وليس لحياء! لم تكن هذه القطعة محرومة حيواناً وَجِئَتْه سبابة عابرة، فالأمر بالنسبة إليّ بعد النقرة الأولى إلى عينيها صار أكثر من ذلك! رنت هي عينيها بالطرات نفسها التي كنت أراها في أعين من ينتظرون الموت ولا يطمعون بالنجاة ممن أعرفهم من المرضى ومن المحيطين في هذه الحياة. رأيت في عينيها «الألم المتشرد» عارياً كما لم أره قبل هذه المرة، حرس تصحح دموعك حرناً مهدراً كدموع صلبات الكفار في اعتبارات مؤمن مطرف! بنعي ألا بأسف لها ولا أن يؤجر هو عليها! حين لا يعلم بها أحد، ولا يحترمها أحد، ولا يحرر لأجلها أحد، وليس لها وصفة شفاء!

مرت بضع دقائق فوفقت سيارة وركل منها شخص فإذا به «فلان» الذي يعرفني وأعرفه، وقد كان معي قبل قليل في حفل الزفاف. أقبل بسرعة وطيش فوقف فوق رأسي وأب حالس أنظر للقطعة، أفكر ماذا سأصنع لها، فقال.

- لأجل هذا وفقت؟ من أحل هذه؟ يا رجل! قم بزميها

بكل قوة بعيداً عن الطريق، أو قم بتمرير عجلات السدرة فوق رأسها، وانتهى الأمر!

اخضم كلامه بسخرية الأحلاف السادحة ومضى! حاوت أن لا يتكرر الموقف، فسيمرّ على الطريق أناس غيره ممن يعرفوني، فأحضرت كرتوناً وسحبتهما فوقه ثم وصعتهما بعيداً خلف كومة رمل كسرة بجانب الطريق، وحين مصيت عائداً إلى السيارة رفعت صوت موانئها بشكل يدمي القلب، وكأها تقول لا تتركني هذا! لم أفكر بتركها، لكن لم أسطع لعداوة دمائها أن أصعها في السيارة فأبعدها لكي أؤاري سيارتي عن الطريق فأحضرت السيارة وأوقعتها بجانبها وأطفأت الأنوار وفتحت باب السيارة لكي أراها على نور صغير ملصق باب من الداخل!

أحصرت لها ماءً فشربت، ربما لأنها تظن أنها حين تشرب الماء ستنحو وتعيش، وكانت تنصر إلي باستمرار، إلى عينيّ نحديداً، ولم أفهم سبب ذلك حتى الآن! حدثت أمامها أنظر إليها، فهذا كل ما أستطيع فعله، أن أحس بجانبها حتى يموت، أحمرها نبي حزين لأحلبها ومهتم بالمهد، ونها ليست وحيدة! توقفت عن الحواء وما رال الدم يزف من حسدها وفمها، وهي تنظر إلي، ثم تضع رأسها على الأرض، ثم ترفع رأسها من حديد، تعيد النظر إلي! لا أدري لماذا شعرت بأن سكينه غربة

حلت عليها، أصبحت تغفو شيئاً فشيئاً حتى سكبت ولم تعد تتحرك، وبعد حوالى الساعة تقريباً، أو أقل، من الجلوس معها كنت قد فارقت الحياة، فركت سيارتي ومصيت!

مضيت إلى المنزل وفي محيلتي وجه ذلك الجلف الأحمر وهو يسخر مما فعلت، وكيف يموت هذه الأصناف من لبشر الكثير من نعمة التأمل! هؤلاء الدين لا يستطيعون لقاط لرسائل التي يلقيها الله بين أيديهم ليتعلموا منها شيئاً جميلاً، فيظنوا إليها على أنها أحداث اعتيادية لا قيمة لها! طيلة الطريق إلى الممر تلك الليلة كنت أفكر في عدالة توزيع الألم بين مخلوقات الله! تذكرت كلاماً لابن القيم في كتابه **عدة الصابرين** حول عذاب الأطفال في دنيا حين يتعذبون من الممرض والحوو والحروب ثم يموتون، ما الفائدة من عذابهم إن كان كل الأطفال سيدخلون الجنة سواء تعذبوا أم لم يتعذبوا؟ لماذا، إذاً، يتعذب بعضهم وبعضهم لا يتعذب؟

بحثت في القسم عن نصوص تفرق بين أجر الأطفال المعذبين وغير المعذبين، والحيوانات المعذبة وغير المعذبة، فجاء بأشياء ليس من نصوص الوحي ولا تقوم به حجة كدليل شرعي! قال ابن القيم كل شيء إلا الشيء الذي اكتشفته الآن ولم أحده في **عدة الصابرين** ولكن وحدته في عيني تلك النقطة!

وحدث أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، وأن أي كائن مخلوق لا يملك إلا أن يستسلم لإرادة ربه الذي خلقه طوعاً أو كرهه، وأن القدرة التي نمارسها كشر حار عاقبتنا، هي نوع من القوى الخارقة المحضة، ولكن لا نفطن لها لأنها حين تزول لا يستطيع أحد استرجاعها أو إيجاد البديل عنها! كل كائنات خارقة في الحقيقة ولسا بحاجة لأسطورة سورمان ولكنا نستخدم قواها في أشياء اعتيادية نافهة فحولت قدراتنا إلى قوى نافهة علفية ذات أجندة حمارية!

وجدت أن الله ترك في هذا العالم إشارات صاعقة لا يمكن تجاهلها، تدل بوضوح على أن الدين ليست دار عدل ولا دار «وعي كامل»، وأن شدة حبكة تنظيم العالم مع شدة بشاعة مثل هذه الإشارات غير المفهومة للألم والمعاناة، تدل على أنه لا بد من وجود حياة أخرى وعالم آخر تكتمل فيه حبكة الأشياء، وتصل فيه الحقيقة إلى أقصى نهايات تحقيقها.

حين تؤمن بمثل هذا، ستعلم أن هذه الحيوانات التي تموت في الطرقات، وهؤلاء الأطفار الذي يموتون مرضاً وجوعاً وفتلاً، هم من دفع بدلاً منك ثمن هذه القناعة المريحة لتي جمعناك لا تأسى على ما فاتك، ولا تقط من الاقتصاد مما طمك يوماً ما!

وحدث أن العلم لا يحتاج إلى قراءة وكتابة، ولكن يحتاج
إلى حدس صحيح وروح شفاقة وعمل غير أناني، يؤمن أنه جرم
من هذا العالم المتجانس، وأنه شكك أو بآخر معنيّ بكون ما
يحدث فيه!

كلنا مدينون للمُعذِّبين...

نحن لا نشفق عليهم، وإنما نرد لهم ثمن القذات!

* * *

خالد بن الوليد الذي علمني القراءة!

«إن الحميمة تأتي على مهل ولكنها تأتي!»

فليكس فارس

في يوم من الأيام كنت في الصف الخامس أو السادس الابتدائي فسمح لنا الأستاذ أن نستعير الكتب من غرفة كبيرة في المدرسة اسمها المكتبة! دخلناها وكانت أول مرة أذهب، فوجدت كتباً موصوعة على الهروف شكل أنيق وتلك هي المرة الأولى في حياتي لتي أشعر فيها بأن الكتاب شيء حاصر تمنح له عرف خاصه، ويوضع فيها شكل أبيق كما يفعلون بالأحذية في سوق المدينة!

دخلنا المكتبة فشعرت بشيء غريب بشبه الدخول إلى مكتب مدير المدرسة، فلهدوء والترتيب والصمت المطلق يوحى بأن لهذا المكان هبة خاصة! كان صوت أمبي المكتبة بانتظارنا «لا تخرب يا ولد! حنر كتاباً وكتب اسمك، ورجعه بعد ثلاثة أيام». دخلت فوجدت كتباً مكتوباً عليه خالد بن الوليد، وعليه صورة فارس على حصان ومعه سيف! هذا خالد الذي كثيراً ما حدثنا عنه مدرس التاريخ^{٩٠}! أخذت الكتاب وذهبت إلى البيت لأقرأه في ثلاثة أيام كما تعهدت، فوجدت فيه قصة عريسة لم يحدثنا بها مدرس التاريخ!

نقول القصة بأن الفدروق عرب خالد بن الوليد لأنه قتل أحد المسلمين في معركة ما لتبروح مرأته^{٩١}. فقد المؤلف هذه

القصة وبها وجاء بالأدلة، وأن الفروق عرل خالداً لكي لا
يمتتن الناس به فيقل إسماء النصر كان بسبب فائدة حاله، وبعد
ذلك علمت بأن اليهود انهموا داود (عليه السلام) بالتهمة نفسها،
ولكن؟

مع كل ذلك بقي في نفسي أثر كبير من هذه لتجربة! أثر
مفاده أن بعض الكلام الحظير عن بعض أخضر الأشياء والرموز
في حياتنا قد يكون موحوداً، حتى وإن كان كذباً، ولكنه موجود
ولس تجد من يحدثك به إلا لكتاب.

لا مدرس لتاريخ ولا مدرس التوحيد سيحدثك عنه! شعرت
أن لكتب فيها من الصراحة والمفاحات أكبر مما نحببه. وصار
لدي شعور قوي بعد ذلك أن كل كتاب كبير قد يحوي بين جنبه
عالماً من الدهشة قد يقلب كل مفاهيمي رأساً على عقب!

وبمجرد ما إن جاء وقت استلام الشهادة أحدثت حائز
الساح، «مائة ريان»، وذهبت إلى المكتبة الوحيدة في ذلك
الزمن «مكتبة الإرشاد» فبحثت عن أكبر كتاب فوجدت كتاباً من
أحد عشر جزءاً وقرأت عنوانه وإذا به العقد الفريد، ففتحته،
ووجدته يتحدث عن الصحابة والدولة العباسية والأموية، فقلت
لنفسى. «هذا سيحدثني الكثير مما لم يعله أحد من حق
والطل»، فاشتريته وقرأته في ثلاث سواب! كان أكبر وأخطر

تجربته مررت بها هي حياتي. تخيل طفلاً في المرحلة المتوسطة
يقرأ ما في العقد الفريد؟

وبقي لديّ هذا الشعور الذي تعلمته من قصة خالد بن
الوليد

«الكتاب أشجع من يتكلم على وجه الأرض!!» ..
فأحسّت الكتب... وما رلت أحول أن أتعلم منه تلك
الشجاعة...

وأن أحد فيه ما يرصي نهم بدهشة و«لسر» حلف كل
معرفة معلنة بين الناس، وما رلت كلما رأيت كتاباً كُسرأً شعرت
شيء يشبه الشعور الذي يسابك حين تقف حلف ستار مكتوب
عليه «ممنوع الدخول لغير لمدعوّين» فتسمع خلفه صججاً
وصخباً فنقول في نفسك:

كم حلفك من الأسرار والأعاجيب والمعادير وكل ما لا
أتصوره الآن؟؟؟

كانت حادثة بسيطة... لا يذكرها أحد...!... ولا يعلم بها
أحد...

ولكنها غيرت حياتي



قُبلة بکُور!

«الطفل والد الإنسان»

وليام وردزورث



بَگُور هو الاسم الحركي لاني الأكر «بكر»! بَگُور يشبهني كثيراً ويشبه طبيعه طبعي، اعتاد مثلي في هذه الحياه أن يرى بعينه الصعرتين أقل مما يستحق وأكثر مما ينبغي! قرربا ذات يوم الذهب إلى «البر» فأخذنا جميع ما نحتاجه، وحس وصلنا إلى المكان المحدد، أشعلنا النار وصنعنا الشاي والقهوة، وكان بَگُور في صراع دائم مع أخيه الأصغر «عمر»، لكن هذا الصراع يختفي حين نخرج خارج المنزل.

بكر عمره أربع سنوات، وعُمر ستين ونصف، وفي غفلة منا توجه عمر إلى عنة ماء صغيرة ك قد وضع فيها شيئاً من الكيروسين «الكاز» لنشعل به النار، ففتح عمر العلبة وشرب منها قليلاً! أخذ عمر بالسعال والشهيق، فأنهض له، فهرعت إليه أمه وجدته وأنا، وكل واحد منا يحاول فعل شيء لنقذ به الموقف! قام أمه من دون تفكير وأسقته شيئاً من الماء، بينما حدثه نصراح أعطوه قليلاً من الزبادي وهي ممسكة بيده، وأنا ممسك برأس عمر، أنظر إلى عييه هل تبدو عليه أي علامات عرية أو إغماء!

كان الجميع في حاله «سنعار»، ووجه عمر تبدو عليه علامات لحوف ويشعر بعدم قدرة على الكلام وكان بَگُور

يلاحظ ذلك ويقف حائراً ينظر إليه! بكر يحب عمر كثيراً وكان في كل مرة يشحر معه أو يمارس معه دور الأح الأكبر ننهرة، فيتوجه مسرعاً لعمر ويقلله فيسكت وتنتهي المشكلة! لم يستطع بـكـور الوقوف متمرجاً وهو يدرك أن عمر فم بفعل شيء خطير بهدد حياته، وأن الجميع يحولون مساعدة عمر!

لم أنته إلا وبـكـور بنطلق ودموعه في عينيه مستهراً فرصة ابتعادي قليلاً عن وجه عمر فأمسك به وقله على حده وعد مسرعاً إلى مكانه، فوقف يراقب عمر من حديد! لم يلاحظ ذلك أحد! وهذه هي مشكيتي الأربية! أني ألاحظ الأشياء المؤلمة التي لا يلاحظها الآخرون! بـكـور يحاول نقبته أن يفقد عمر، أن يصلح الوضع، أن ينهي المشكلة كما ينهيها كل مرة! كان كل مرة يقبل عمر بعد اشجار يعود عمر ليضحك ويمارس حياته شكل طبيعي وهو الآن يشارك لإفاد عمر لعه يعود إلى حياته لطبيعية بالطريقة الوحيدة التي يعرفها والتي يتمنى أن تحج هذه مرة أيضاً، كما كانت تنجح كل مرة... «قله على حده»!

كان وجه بـكـور سلمي دلسفة والخوف والحب لعمر قد اسم قلبي! هذا الولد إن عاش بكل هذه الطيبة والبقاء والصدق مع الآخرين سيعاني كثيراً وسيئاً كثيراً! سست أمر عمر ونفيت أنظر إلى بـكـور وهو منهمك في مراقبة عمر، وهل يستحب

لصراخ أمه، وهي تقول. «عمور قل ماما! عمور قل ماما! عمور
تقدر تكلم؟!».

عاد عمر إلى طبيعته، ولم يستغرق الأمر إلا بضع دقائق
ليستهي. ولكن نكور بقي طينه اليوم بركض أمام عمر ويراقبه
لكي لا يربك حماقة أخرى، وكان يحصر له الحلوى
واسطاطس والماء، وحمل نعبه لكي لا تصع ولم يلاحظ ذلك
أحد غيري!

أن أبصاً أمارس «قلة نكور»! كتب وما زب أظن بأن الحب
هو علاج كل شيء وأسى مهم تصرفات، ومهم بدر مني نجاه
الآخرين يكفي فقط أن أخبرهم أسى أحهم فعلاً، فيسبون كل
شيء، ويعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي ولكن الواقع غير
ذلك! فالدس لا يكفي بالحب ولا تقل به كعذر لكل شيء.

الناس يفسون الأكاذيب الحميمة أكثر مما يفسون الحب
الصدق حين يأنبهم في وقت لا يحتاجونه فيه! الحب قد يعي
لك كل شيء في الحياة، لكنه لا يحقق بالآخرين كل رعاتهم،
وطلما أن الحب سحاً مزورة كثيرة، فالإمكان الاستعناء عندك
وعر حبك بكل سهولة حين يتوفر شخص آخر يقدم لهم ما
يحقق رغباتهم، مع نسخة فاحرة من حب مزور!

* * *

لأجل الحب يا ميمي!!

إن لم يكن في القلب حزن حبيب،

مالك بن دينار



عدت مرة إلى الممرل وكبت قد وعدت ابنتي ميمي بأن
أحضر لها بعض الألعاب والحلوى حين عودتي، فنسيت!
استقبلتني بفرح صادق وشوق وهي تنظر إلى يدي فلم تر شيئاً،
وأحزنتها أنني نسيت! عضت وصادت تنكي، فبهرتها، وكبت
ذلك اليوم سبيء المزاج كما أنا دائماً، فسكتت وذهبت لعرفة
منفصلة وحلست فيها! أنتها وكلتي أسف واعدار لعلها تعمر بي
وتتارل عن وعودي لها، ففالت وهي تجمع يديها الصعبرتين في
حضنها وتنظر إليهما.

«أنا ما أعلك! أنا زعلت عليك!!».

لا أدري من أحر ميمي أن الكبار يحتاجون إلى من يحبهم
أكثر من الصغار، لكنهم يستكبرون ويتعالون على رغبتهم هذه!
لهذا تحد أكر الكبار الس حاسهم الأول والأخير «هل تحبي
عدلتي؟». يُمصني الأنسان كل حياته بحثاً عن معانٍ يطمنش
إليها، أو مدرسات تشعره بالغنى والاستغناء عن حوله، ولكن
في النهاية يدرك أنه لم يكن يبحث إلا عن الحب والاهتمام
الحقيقي من الآخرين، عن الحب في أبسط صورته!

لم أسطع تجاهل حزن ميمي وأنها «ما تغلبي!» فخرجت

وأحضرت كل ما وعدتها به! الحزن بداخلي ويدأخل من أحهم
يعلني إلى آدميتي بطريقة سحرية، فأجدي أفكر بطريقة مختلفة
واعتبارات جديدة لا تكون في نالي حين أكون في المنطقة
الرمادية الماهة الخاية من عموان المشعر، تلك المنطقة التي
نقتل القدرة على ممارسه الموهبة وبحصري في إطار علمي
بحث وتحولني إلى رجل آلي!

الفراع يعلمها الفلسفة، والحرن يعلمن الحكمة، وحين
يجمع امراع والحزن تتعلم الأدب! الحيوانات لا تستطيع فلسفة
أحراسها ولا حتى أن تكسب فيها فصيذة. أجمل ما في الحرن أنه
يشعري أنني بشر ونبي قادر على أن أهي من جراحتي قصوراً
من المعاني المغايره لكل شيء عادي، والحيالات والأساطير
الشاعرية الخفية التي تعنها حالة الالتصاق بجوهر الحربة.

الدئب والأسد والكلب، عندما نصب أحدها بجرح في
حسده يحلس يلحق حرحه فتنتهي «قصة الحرح» هذا لن يفكر
الحيون بأن هنك ثمة ظلماً وقسوة وصراعاً ومؤامرة وحبشاً
وحديعة وحيبة ولعبة ونحس، وكل الأشياء لمثيرة لحزن هاحس
إعادة فهم العالم من جديد!

عندما يفتححك الحزن فعصّ حلفك بدمعة تكاد أن
تفضحك وكأن كل من ينظر إليك يراها! تحسب أن حلفك قد

تورم من العبرات المحتفنه فيه حتى صار كحلق طائر بحري
بتنع لنوه سمكة أكبر منه! عندما نجم عليك الخيبة وشعر بأن
حي لحجارة تقف في طريقك لتتعثر بها وحتى الريح تعتمد أن
تهت لتملاً عينيك وفمك بالثراب، وأن كل شيء في هذا العالم
صار يتسكر لك، حتى صوت أزيز باب قبك الخاوي بات
يحول أن يحيفك بأعنى درجة ممكة!، عندها ستعلم أن الحزن
«بيع كبير» لأقوى الدوافع الدانية للاستقلال والصمود وتمييز
الأشياء من حولك وإعادة ترتيب علاقتك مع كل شيء يحصك!

الحزن يصنع الرعدة في التحرر، التحرر من الجرح
والحارج، التحرر من الأشياء التي تقتحمنا من دون إذن ما
لنفس علينا أنفسنا، التحرر من عناصر الحتمية والإرغام، فتسمو
الأنفس وينتشر الحبال وتبرز على شفاء الحراسي مصطلحات
راقية مثل: الحرية، النجاة، لخلاص، الماورائية.

كما زاد الحزن زدت نرعة السمو على «القيد والحتمي»
حتى يبلغ ببعضهم أن يعلق المشنقة لنفسه في سقف مزه أو
يطلق الرصاص على رأسه ليتحرر من أقرب الأشياء بديه، جسده
وقلعه وحواسه الخمس!

لأجل ذلك كله، تحد أ في شخصية «الإنسان الحزين»
بعداً إنسياً حملاً وهاله من المعاني العائمة في بحر كبير من

«الأدمية» والشعور والحس والمبدأ، تحد له جذبة عربية لو
تمعت لوحدت أنها حادية «السكبة الإنسانية» في شخصية
وملامح ذلك الحزين!

و يكفي أن تقول لي ابتي الصغيرة ميمونة «أنا م
عليك!!» لأحد نفسي حرياً أفكر بكل ما أوتيت من عاطفة: ما
قيمة الدنيا بلا حب؟!



كنت أتابع الدودو!

«لا يمكن ملاحظة الجمال بنظرة متسريعة»

جان كوكتو



دخل «نكر» الصغير إلى حياة ميمونة وسرق منها أمها! لا أحد يدرك ما الذي يمر به ميمونة الآن، أحد مثلي! أليس على سمات وجهها الرىء مسحة حزن ونبد وهي شير بإصعها للصغير إلى أحبها الجدد وتقول: «نونا!». تعلم ميمونة أن التعيرب الحادثة في البيت هي سبب الـ «نونا» وأن هناك حدثاً غير قاس للتعيرب قد وقع، وأن هذا الشيء الصغير الذي لا تدري من أين جاء كاد شيئاً يشبه الرسوب في مادة لم تتوقع أنث ستترسب فيها. ومع هذا كله مارس عليها صلافة الكبار وجلافتهم، ويقول لها «وسي النونا!... النونا حدوا؟»... فنهر رأسها الصغير وتقول: «إيه!!».

أردت أن أريها أسي ما رلت مهتماً به، فقلت لها: «روح للملاهي؟» ففرحت وقالت: «بلاهي؟!». فقلت: نعم! وهي تنطق كلمة ملاهي هكذا «بلاهي» وأظه يليق بها فعلاً فهي مكان مناسب للكبار لممارسة البلاهة بشكل محترم!

لم يكن هذا طبعي! لم أكن أحب اللعب حتى في طفولتي، فكنت أحصل في ل مواد العلمية على درجت كمله بينما درحي في التربه اللديه متديه! كان المعلم رائد القص يقرأ شهادني ويقول: «إننا ما نتعرفش بجري والّا إيه؟!». نعم كنت أعرف

التفكير ولا أعرف الحري ثم كبرت فعلمت الكتابة ولم أتعم
الحاة!

استطاعت ميمونة منذ ولادتها أن تعبر لكثير من طبعي
وأن تحولني إلى مهرج كبير شبيهاً بشخصية الكرتون
«بوزو»! ...

كانت ميمونة تلاحظ أننا وصصنا إلى «إلهي» على
مسطحات خضراء وضعت فيها شاشات كبيرة يتعم لباس من
حلالها كُرس العالم الذي لم أعلم عدومه حتى رأيت بعض
الأصدقاء اليوم يمسون بتلايت بعضهم البعض! كانت ميمي
تصرخ: «إلهي إلهي!» وكان لشباب يتابعون فريق إيطاليا الذي
يلعب ضد فريق حرا، وكان كل شخص من حولنا يشعر بكمية
من الحر والسعادة، تبعاً لما يلاحظه من الأشياء التي يصرف
اهتمامه إليها!

في الحقيقة، ليست المشكلة في وجود المشاكل أو حدوثها
كقدر فعلي، ولكن المشكلة تبدأ عندما نلاحظ وجود ما لا
يروق لنا وقد يكون موجوداً أصلاً، وك سعادة قبل أن نلاحظه،
فهو ليس مشكلة مستترة في حد ذاته! نحن نمرح ونحزن على
قدر استطاعت في ملاحظة ما يعجبنا وما لا يعجبنا، وعندما
نكون لديك «ساعة الأعاجيب» فلن تكون حزياً على أي

حال! وككن رحة خارج المرل، فحين فصل المكان المقصود،
سنصرف كل واحد لما يجذب اهتمامه، فكنت ميمي تلعب
وكنت أنا أمثل دور الأب الاجتماعي الذي يلعب مع أبنائه،
ولكنني مدلت سريعاً فجلست وأحدث راقب السبرات العارة
للطريق المجاور لنا!

لاحظت وجود حنساء صغيرة، و «دودو» حسب قاموس
ميمونة، وكانت تعبر الطريق المليء بالسيارات تريد الوصول إلى
ضفة الرصف الاخرى كنت أشعر بأر هناك ثمة عملية انتحارية
نحدث الآن تشبه شعور من تحلل صفوف العراة وهو يتحين
لحظه سحب الصاعق الذي يربطه بالمتفحرات تحت قميصه
كنت أشعر بمعادبها وأنها الآن تمر بلحظات حرجة لبعاية
وميمونة مشعلة في «البلاهي» والشباب يضطرون تشجعاً،
ويصرحون لأجل ناس لا يعلمون بوجودهم على كوكب
الأرض، ولا يهمهم أن يعلموا!

كأت الحنساء سير ولا تنتفت ولا تتوقف وهلات العاية
الإلهية تدور في خاطري!... كيف سمعل الله بها؟... هل
سيكتب لها النجاه؟!....

الحكاية ليست حكاية حنساء، ولكنها «حكاية فكره» ،
حكاية كائن حي ومصير يشترك فيه كل الكائتد، وهو الموب،

ثم بما أن كل إنسان حر في أحاسيسه، فمن حق هؤلاء
لمشجعين أن يشرعوا بها لكأس العالم، وأنا سأترع باهتمامي
بهذه الخفساء! هي ستدفع حياتها ثمناً لهذا المشهد المؤثر، بينما
لاعبى كأس العالم سأدفع لهم ثمن كروت القنات الرصاصيه، ثم
يحصلون هم على الددير ويذهبون بعد المباراة للاستراحات،
وأعود أنا إلى «اللاهي».

لا أحد يستطيع الهرب من عقله! حتى وأنت في «اللاهي»
ستجد أن عقلك وطريقة تفكيرك تعرض نفسها! الخروج من
المرل لا يعني أنك ستكون في فسحة وترويح عن النفس ولكن
الخروج من طبعك المسمر هو المسحة لحقيقة مهما كان ذلك
الطبع!

كل هذه الأحاسيس التي حولنا هي ليست وليدة «الوحد
والعدم» ولكنها وليدة الملاحظة لا أكثر، سواء ميمونة مع
«اللاهي» أو المشجعون مع الفريق الإيطالي، أو معي أنا
والخفساء! لهذا لو راجع أنفسنا، فجد أن أكثر آلاما وأفرحا
هي ليست نتيجة لصناعة دانية لأشياء نفسها، ولكنها نتيجة
لتورط بملاحظة أشياء لآخرين والوقوف في شرك فهمهم أو
فهمها أو حتى محاولة تحاكيها!

عادت ميمي من «اللاهي»، ويعرض بي أن أعود إلى

المنزل سعيداً منشراحاً بعد أن هرب من نفسي إلى «البلاهي»
لمدة ساعتين أو أكثر، ولكن للأسف لم يكر ذلك صحيحاً!

عدت وأنا أكر سلك «خفساء» الكثير من تصرفاتنا
وأقدرنا لا تحتلف عما كانت تمر به لحفساء! المرض،
الفيروسات، حوادث السير، الصدف العشوائية المؤثرة في حياتنا،
أشكالنا التي حُصنا بها، شركاء حياتنا، وطائفة، والكثير الكثير
من مثل هذه الأمور كانت نقف وراءها قدوة حقة هي التي
حددتها من دون غيرها، وجعلتها واقعاً من دون أن يكون لها
حرية مطلقة فيها، ثم نحن الآن نعيشها ونأثر بها!

هناك، إدآ، عنصر خفي يصاحبنا....

فنحن لا نقبل مطلقاً...

ولا نرفض مطلقاً...!

لا نبيع مطلقاً ولا نحسر مطلقاً...!

لا نصل مطلقاً... ولا ننقص مطلقاً..!!

وعلى كل إنسان أن يكتشف الحرة «الدودو» في حياته،

إدآ...!

* * *

عقل يحتضر!!

«كثرة العمل لا تقتل أحداً..!»

ما يمثل هو كثرة التشتت والعلق»

تشارلز إيبسز

أحمل ما في شخصية الإنسان الانطوائي المتفوق المتبوق
المتشريق .. إلخ إلخ! أنه يعيش تنصيب سهل جداً للبشر من
حوله، فهم يقسمون إلى صنفين فقط، لا ثالث لهما: الأصدقاء،
وهم شخص واحد فقط هو نفسه التي بين حبيبه، والصنف
الآخر هم الأغراب، وهم بقية سكان الكوكب!!

يا إلهي كم هذا رائع!....

هل رأيت أحسن من هذا؟!..

حدث أن ردّ هديف العمل وإذا به حارس النوبة، يقول
«عندي رجل يقول إنه صديقك، ويريد...» فقاطعت مباشرة،
وقلت: «ما أعرفه!». ذهل حارس النوبة من قدراتي، سخارفة
بحيث استطعت الحزم أنني لا أعرف الشخص حتى قبل أن
أقبله! فقال بدهول: «ياحي أنت ساحر!! كيف عرفت؟!». فأخبرته
سظريتي الانطوائية في تصنيف الشر، فأعجب بها أي إعجاب!

المهم طلعت منه السماح له بالدخول ودخل علي، وإذا به
شخص قد قرأ كتابي تحقيق خلافة الإنسان على الأرض ويقول
أنه بحاجة لرؤيتي!

كان اسمه لدكتور سيد، طيب مثقف ومترم ديباً، من
أحواس المصريين. تكلم حول الكتاب، وتكلم حول كذب يوي
هو تأليفه وقد رأيت الشيب في عارضيه، والكلام الكثير في
عيبه، وإذا به يعاين احتقناً معرفاً لكثرة ما قرأ، ولم يوفق إلى
إنتاج شيء على خلفية ذلك سوى مشروع أوراق يجمعها
ويحتفظ بها، نكلم عنها وقد تبلغ المئات!

الدكتور سيد لم يكن حالة نادرة، فغيره كثيرون، ولكن
تدركه لنفسه كان خطوه جيدة، خصوصاً وأنه يبدو عليه علامات
حب التشعب والعمق وجمع أطراف المشاهد. وبعض النظر عن
انصباعي الشخصي نحاه، عبر أبي رأيت فيه نسخة من كثير من
الكتابات الذين سينصرون بهم العمر إلى أن يصلوا إلى مرحلة لا
تقبل «اللملمة» والتوفيق بين شتات معرفي، وخواطر كثيرة، تتردد
بوما بعد يوم، ولا تبرح البال ولا تقبل أن تكون شيئاً في الوقت
نفسه!

قال لي: لدي أفكار كثيرة! لدي أشياء كثيرة!

ثم سكت ولم يستطع وصف نفسه أو ما يدور بداخله!

قلت له: ولكثرة ما لديك صرت نشعر أنك لا تعرف شيئاً
على الإطلاق!

نظر إلي بحسرة، وقال. تقريباً!

ثم ناقش الدكتور سند فيما يمر به، واكتفت بأن أكدت له أنه يمر بمرحلة «احتضار عقلي»، فالمعرفة مثل الزمن، كلما رد مرورها على العقل من دون تقييد، اقترب العقل من حالة «العجز»، كما يعجز الجسد لكثرة مرور الزمن عليه!

المعرفة بسرد المعرفة أمر مؤرق وفيروس يشتت خلايا الدماغ ويبعث الذاكرة ويمرق القاعدة الأصلية التي يقوم عليها كل ما سواها من تفرعات، ولهذا لا بد من معرفة يتم مرزها في حننها وترنسها في خلايا الشعور قبل أن تقف في غير مكانها، فلا هي تعمل بشكل صحيح ولا هي تفسح الطريق لسواها!

سررت بالدكتور سيد وحزنت بسسه، وما رلت أنتظر مسودة كتابه لدي سيريني إياه والذي أتمنى فعلاً أن يحرره، وإلا فإنها حبة كبيرة أن تقرأ أربعين عاماً ثم تموت من دون أن تستطيع توفيق ما في نفسك في كتب من قطع صغير أو متوسط!

* * *

لوحة حمراء مومضة!!!

«أليس هذا أمراً غريباً؟»

ناس يعيشون الموت أكثر من نساء . مع أن الحياة تؤدينا أكثر».

جيم موريس

قبل نهاية الفصل الدراسي، شهر أو شهرين، كتب أحلس في غرفة السكن في جامعه الثروب والعدد، معاد صديقي عبد الحميد إلى العرفة بهيئة مصطرة، فوجهه محمر وعرقه يسيل، ثم جلس واحماً لم نكلم، ولم أتكلم، فكبت أنساءل عن حاله العريية! فصر وفتح الحزاة وأحرج ثيابه ووضعها في كبس!

فقلت: «وش فيك عدا حميد؟؟».

فقال بطريقه سريعه وهو يتسعم من تراكم الكلام في صدره:

«دكتورنا بالكلية مات! طعمه واحد من الطلاب بسكين، فتح المظريف بالمكتب يوم تهاوشوا ومات! تصدق؟ معه دكتوراه من كندا أخذها قبل سنتين، والحين مات!...»

ثم صحت ضحكة هستيرية ساخرة!

فبادرته "طيب وش فيها كلها بي يموت يوم من الأيام؟".

فجلس وصم لكيس إلى صدره، وقال:

«يعني أدرس وأحس هـ بشريه ويحيني واحد يذبحني عقب كل هالتعب؟» حلني أروح واحتصرها احربها مدري وشلون أموت ليش أتعب حالي!...»

حاولت أن أثبته عن قراره وتحديث معه عن الدنيا وعن
صر الرجل وأن أهله ينتظرون منه الكثير فصار يطر لي
كاطفل الذي ينتظر وجبة طعامه ثم قال لي، واندمع في عييه
نبرة خاشعة أسمعها لأول مرة منه

«الله جميل واللي يرحم والديك، قل لي أنا مسوي حاجة
غلط بحياتي؟؟ أحس أنني مدنب بس مدري ليش كأني مسوي
حاجة كبيرة!!».

ثم بكى وبكى معه، والصحيح أنني بكيت عليه، انتهى
عبدالحميد!

نعم انتهى عبد الحميد! هرب عبد الحميد! صحية أخرى
من ضحايا الجامعات والفشل الدراسي، أصيب بالاكئاب وانتهى
لأمر!

تجاوزت الأزمة بصعوبة ومررت الأيام وعادت حياتي
طبيعتها وفي عصر يوم حبل كان أصدقائي يحدسون في عرقي
في سكر الجامعة وقد صنعنا قهوة عربية، وكل واحد من يهيم
في واد، فهذا يتصفح كتاباً، وهذا قد استلقى وروع قدميه على
لجدار لمعان، وهذا يجلس حلف الكمبيوتر، ووجهة طرق
أحدهم لباب فخرجت. كان أحد أصدقائي، وكان هذا الصديق

يفتقر لكل أساليب اللبابة الانسانية، فقال مباشرة:

«حيث محمد صار له حادث ومات!».

فصرخت: «لا يا شيخ!»..

وأخذ قلبي يفسر في معنني، ومع أن هذا الرجل ليس صديقاً قريباً جداً ولكنه كان صديق طفولة! وكان قد تروح قل ستة أشهر على صعر سه، وسكن في شقة مستقلة حتى قل تخرجه، فكنت أظنه سيكون أسعد مي، وأنا أكاد عاء الجامعة والتعثر الدراسي! لا أدري لماذا تذكرت نظريه عبد الحميد:

«طالما راح أموت ومدرري وشلون أموت ليس أتعّب حالي؟».

عذب إلى العرفة وأطفأت المسجل الذي كان يضي بصوت مرتفع ووجهي فيه حير قائم ولم يتجرأ أحد على السؤال! فقلت: «خوينا محمد، يقولون صاير عليه حادث!»...

فقت وخرجت ففهموا الأمر ولم أعد إلا في المساء! الآن بدأت أفكر فعلاً شيء اسمه «العالم الآخر» الذي قد بدخله في أي لحظة، وأنه لا يوجد شيء اسمه «الوصول إلى نتيجة سعيدة»، فكل السائح تلعب نتيجة واحده، اسمها الموت!

خرج في بهايه الأسوع يسى كورنيش العريية في النحر

وكنا نتحدى بعض البعض فيمن سيركب الحصان من دون أن
يقع، وعندما اقتربا من الكوريش رأيا سيارة شرطة واقفة وأناساً
مجتمعين وهرساً تتلوى على جانب الطريق، ترفع رأسها وتضربه
بالرصيف، اقتربنا فقال الشرطي:

«روح روح امشي قدام!»....

كان متوتراً للغاية فتجاوزناه وإد برجل واقف بحسب
سيارته وعليها بقع دماء فسألنا أحد الواقفين ونحن في السيارة.

«هذا صادم الفرس؟»...

فقال: «يا الله صدمها وعليها المسكين ذا!»...

فنطربا إلى ما وراء سيارة الشرطة وإذا برجل لا تظهر إلا
رحمه وقد غطوه بشرشف كان مع أحد الواقفس، كان الرجل قد
مات...

قلنا: «كيف جا هنا؟»...

فقال: «ما كان يعرف يحتل، وركب بي يوري عاله ركوب
الفرس وهرب فيه على الطريق السريع وصدمته السيارة
والمسكينة روجته - فأشار إلى حب سماري وراء الأشجار -
كانت تناخر هي وعيانه!»....

نظرت إلى حب أشار، وإذا بسوة يقفن عند باب السيارة

يتحدثن مع المرأة والأطفال مع بعضهن وراء السيارة لكي لا يروا أناهن، يساندنها إلى حين هدوم بعض أفراد عدلتها! بطرت إلى الأطفال وشعرت برعة بالكاء! كم هو مؤسف أن يحول الفرح فحاة إلى مصيبة لم تكن بالحسن، ثم لا تجد رجلاً يفهمون في وجهها ساعة وقوعها! أخذت يدي ترتعش من اعصب لأسباب لا أعرفها فقبضت على ناص الحركة بعنف ودفعته للأمام، فحركت السبرة ومصيت وصديقي يقول: «هذا حل هذا! يركب القوس جنب الطريق؟». مصيت ولوجه اعلانه تومض في محيلتي كتب عليها.

«طالما راح أموت ومدي وشمون أموت شيش أتعب حالي»!!

أصبح لموت والرحيل هاجساً ملحاً تلك الأيام، ولا أعرف سبب هذا المتتابع العريب! صارت حوادث الموت تتوالى من حولي وبطريقة غريبة، فبعد هذا بمدة سقط عامل سعالي من فتحة النكييف المركزي في أحد الماسي الأكاديميه، فحر من لطابق الأعلى ليسقط فجأة من الناس في الصالة ويتحول رأسه إلى شقوق تنبعث منها رائحة العسم الاخر، ولو كان غير في سيرته الذاتية كلها فرار خطوة بمقدر ٥٠ سم لما حدث له كل هذا!

لست بحاجة لمثل كبير، إذًا، لكي أحظى بهايه مؤسسة
كبيرة! وصار هاجس اللامبالاة بكن شيء، بنسلك إلى صديري من
حيث لا أعلم! لم أعد أبالي بهايه كهاية عبد الحميد لأنني
شعرت فعلاً بأن عبد الحميد كان يفكر بشكل صحيح!

«ليش أتعب حالي»....!؟

منطقة خضراء!!

«أحب الإنسانية ولكني أكره الناس»

إدعا سنت هيبه



لم أكن أثناء دراستي في الجامعة أعمد على أي أحد، وكنت أواجه كل شيء بمفردي، حتى المذاكرة! لا أطبق امنه ولا الشعور أنني أعيش على تعب الآخرين. وفي يوم من الأيام ذهبت لأفعل جدول الاختبارات النهائية، وسبب تشابه رموز يوم الثلاثاء والخميس في اللعبة الإلكترونية نقلت الجدول بطريقة خاطئة وذكرت المادة التي سأختر فيها يوم الخميس بدلاً من التي سأختر فيها يوم الثلاثاء! دخلت القاعة فلم أجد أحداً، فعدت للجدول واكتشفت أنني أخطأت في نقله، وعدت لعرفة السكن مصدوماً بهذا القدر العريب الذي حطمني بحرفين!

رسمت في ذلك الفصل في ماذنين، فأصابني ذلك باحباط شديد أثر علي في الفصل الذي يليه، وحذفته مكرراً وحلست في الجامعة ذلك الفصل بلا مواد ولا مكافأة ولا طمأينة! تجاوزت الأمر على كل حال، ثم سكنت في عرفة بجانب سكني القديم بعد أن تم حذف اسمي من غرفتي السابقة. كانت العرفة الحديدية حسية، وقد حصل عيها طلاب من أصدقائي في الجامعة، ثم سكنوا في شقة في الحبر وتركوها. كانت العرفة باردة وخالية من كل شيء ولم أكن أفكر في حلب أي شيء

إليها، فقد اكتفبت بأثائها الأصلي الذي تعطيه لجامعة، سرير
وطاولتين وكوسيين وحزاة ملايس!

صرت أكره الذهاب لأحد من الأصدقاء لأنه يذكرني بأبي
لست بطالب منتظم، ولأن حديثهم كان أكثره عن الدراسة. كنت
قد قررت الفرق في الكتب لكي لا أتذكر ولا أفكر، وكانت
الروايات هي الشيء الأمثل لعلي عن كل شيء حولي، فكنت
أقرأ في كل يوم رواية حتى صارت تكلفني أكثر من الأكل
والشرب!

أذكر في ليلة من الليالي، انتهيت من الرواية في الحادية
عشرة ليلاً وكانت سيارتي مع بعض الأصدقاء، فلم استطع
لانتظار حتى يعود في الواحدة تقريباً فذهبت إلى سوبرماركت
انخيل على مدخل الجامعة على قدي من آخر سكر الطلاب،
وهي مسافة تقرب ساعة كيومترات داهياً وعائلاً، كان لديهم
قسم للروايات والكتب والمجلات.

وجدت في لسوبرماكت رواية أجنبية مترجمة يبدو أنها من
الأدب العلمي وعليها صورة غلام، فاشتريتها واكتشفت فيما بعد
أنها قصة شاب كان يتعرض لتحرشات حسية من قبل القساوسة
في معهد ديني كَنسي وأنه كان يعاني عقدة الكتب والسجن في
معهد اللاهوت ليخرج في النهاية ويبع أسس الحقنة!

قرأت في هذه المنة كثيرٌ وكان ذلك أمثل حل بلقضاء
على الشعور بالمراغ وقلة الحيلة وكذلك هو عراء كير عديم
تدخل في تماصيل مشكل كثيرة قد تكون أكر من مشكلتي
البسيطة التي كنت أحملها أكثر مما تحتمل، لمجرد أنني لم أعند
هذا النوع من المشاكل!

وكلما اتسع خيالي بالقراءة والتأمل راد نصاؤل شعوري
بالوجود ورد تشتتي واعدم تعلقي بالزمان والمكان، ولم ألاحظ
أنني حرحت من مرحلة صراع علاقتي بالمجتمع حولي إلى
حلفة أكر ضياعاً وأكثر وحشه هي علاقتي مع الكون كإنسان!
إنني الآن أعاني من دون أن أدري من الشيء الذي لأجله
صنعت البشرية كل موروئها المعرفي مد أن عبيد لإنسان
الشمس والقمر إلى أن عبيد الجبس والدولار، إنه «القلق
الوحدوي»! به الوقوف المباشر أمام تلك الكلمة التي أحببت
نصف الفلسفة... «ليه؟»!

لم تعد الجامعة شهادة، وم يعد إثبات الوجود وظيفة
وزوجه، ما الفائدة في أن أكون حماراً آخر يحمل على ظهره ما
حمله بقية الحمير؟ الأهداف عسها، والهموم نفسها، والممارسة
نفسها، والسهبات نفسها؟ هكذا تحدثني نفسي كلما شعرت أنني
أسلك طريقاً موحشاً لم أتصور أنني سأسلكه يوماً ما!

في هذه المرة المحرقة تعلمت الحوص في جوهر التجربة الإنسانية لمختلف أصناف وأحناس البشر من خلال الروايات والكتب فاكتشمت عالماً جديداً قرأت كتاب قصة الفلسفة لـ ويل دورانت للمرة الثانية وكنت قد قرأته في السنة الأولى لي في الجامعة فقلت قباعلي رأساً على عقب، فهجرت الكتاب حينها!

وحدث عالماً آخر جعل الناس يترجمون كلام الهندي والأمريكي والهندي ثم يقرؤونه، عالماً من البشرية التي ليس بها أفعال وصدور ولا رقص ولا مال، ولا فتيات مقبات يلهث خلفهن الرجل متسولاً قربهن أمام خلق الله في الأسوق بكل وضاعة، ليشت لنفسه أنه رجل يستحق لاهتمام! عالم صعه ناس مثلي يجلسون في غرفهم ويفكرون بالبية عن الآخرين!

كنت أظن بأن التفكير كثيراً عمل سيئ وإذا به توصع له لحواثر ويخضع حوله لدس، وكنت أحسب أن الثوب وانفرتة نعتني أنني لن أتمكن من اتخاذ صديق لا يرئدي مثلهم، وفجأة وجدت همسوي في وداعاً أيها السلاح يدم الحرب، ويقرف لمشهد القتلى الدس تورمت وجوههم تماماً، كما أقرف. وإذا سرونوسكي في الشوارع العارية بصف كيف يتسلل افتي الإيطالي من نافذة عرفة عشيقته خوفاً من أهلها كما يتسلل العشاق في مدن الشمال!

وحدث ألبير كامبي في روايه الغريب يتساءل عن مصير العالم، وعن وجود الله، ويقف في وجه القسوسه بأسئله كبيره لا تختلف عن التي في صدري، وإذا بالحقائر الروسيات في روايات دسوفيسكي يرددن أدعيه عذار البدو لأولادهن، نفسها، حين سرق الشيعية الأطفال من أمهاتهم! هناك شيء مشترك بين البشر عينه عقليه اخصومه بين الأمم وهو احسن «لكائن الآخر»! شيء اسمه «لمعرفة الأدمية»، اسمه الإنسانية المحضة!

نعم! لقد حذفت الفصل الدراسي تلك السنة، وبكني حصلت على فصل دراسي آخر هو الذي بقي لي من تحريتي الجامعية! فصل ما رلت أعيش به وأواجه به صدمات الحياة ونكساتها حتى الآن! في تلك المرحلة من حياتي، بالدات، أدركت لأول مرة أن الحياة بدأت بعاقبتني بسبب طريقي في التفكير، وعلمت أن الأمر من ينتهي هذا! علمت بالتحربة الصادقة أن الحياة ليست صديقه لكن الناس وأنها هي الدكتاتور الأول قبل فرعون وهامان والنمرود وهيتلر! هي عدوتنا بقوانينها الطبيعية الخنمية ومادتها التي نرغمها على التخلي عن صفاتها التي نحب لأجل كسب ود حباة، والركض باتجاه الريح والساحة إلى حيث يحري اسهر بخيره وشره، فقط لكي نصل!

لأن أجدي شخصاً آخر! الآن أجدني أبحث في داخلي

عن «المسطقة الحصراء» التي يحتجع فيها كل البشر على انحير
رعم حواجر الاختلاف المصروية بينهم كجدار برلين!

نحن نسخ من أصل واحد نتحدث إلى بعضها!..

سبح تعيش بالمكونات نفسها وتمر بالسحرية نفسها وتعاني
الأشياء نفسها وتواجه المصير ذاته!.....

* * *

لاحي اجتماعي!

«الحرية ليست من منجزات الحضارة...!»

الحرية كانت في أقصى درجاتها قبل شؤء أية حضارة!»،

سيمون فروييد

قال لي ذات مرة. «أنت مخث كبير، بس عيبك أنك تستهمل على كل حاجة حتى على نفسك!». طعاً سررت برأي صديقي المصري الأستاذ فؤاد ولم أحرر لكمية التهريء انتي كالكه لي طاماً أنه عترف أن «مخي كبير!». أردت أب أظهار أمامه أنني «أحترم نفسي ومخي الكبير!». فأحرته أنني سأقوم بتأليف كتاب يوماً ما! نظر إلي وقال. «إسحق روحك قبل ما تخلف ولاد، وقبل ما يبقى لك صحاب عمل! شويه شويه ومش حتعرف تكس اسمك!». أخذت الصيحة على محمل الدعاة، ولكن بعد أن غرقت في بحر الحياة الاجتماعية وودعت حياتي الحامية أدركت صدق ما يقول!

أمشي في أماكن لله، ووجأة اكتشف أن الجورب في قدمي اليمنى قد شقه أصفر إصمعي الطويل! أسأل نفسي متى آخر مرة قلمت فيها أطافري؟ أنظر إلى يدي فأجد أطافرها هي الأخرى طويلة! فأشفق على نفسي المسكينة انتي لم أفكر فيها حتى صرت شعناً كرجال الهندوس! لماذا كنت أفكر كل هذه مدة، إذا؟ الصدق أنني لا أعلم! كل ما أذكره هو أنني كنت مستعجلاً طيلة تلك الفترة!

أنوجه إلى حيث قد يوحد مقص الأطافر فأقلمها، ينتبهي

شعور يشبه الذي أشعر به أول يوم في الإجازة! نُظر إلى وحيي في المرأة، فلا يروفي، فأقول لنفسي وما جدوى أن يروفي؟ ثم أسأل نفسي: ما الذي يعجب النساء يا ترى؟ يمضي بعض الوقت وأنا أمام المرأة، أحك رأسي فيباغتني شعور كريبه، دائماً ما يأتي ليفسد علي تاملاتي: «ما فيه وقت!! خلصت الشعلة الفلانة» كيف سنحل الوصع الفلاني؟، أتأفف من زحمة الأشياء علي، ألا يحق لي أن أفكر بي ولو للحظة؟

أمشي في ممرات الممرل وأنا أتذكر أمي وهي تحربي بأن ادي يأكل أطعمه سنكبر في بطنه حتى نخرج منه كقرن احروف! تمر هالات من أساطير الأولين وكيف كانت حياتهم بسيطة! عندما اشتريت شمعي الأخير كان هناك بصع عشرة تصميم متداول، وكل واحد به شكل مختلف، وعليك أن تعزفها كلها وتعرف أيها موضة هذا لعام؟!

وعندما تذهب بشماعتك للمغسلة، يسألك العامل. «مررام والا بدون مررام؟» لا يهمني الإجابة بقدر ما أتساءل: من أين أتت كلمة مررام؟ هأتفف من جديد، وأقول لنفسي. هل يجب عليك أن تفهمي كل شيء؟ بمررام، ببطيخ، المهم أن لا يبدو شكلي مقرفاً أو مضحكاً!

يا إلهي! كم هو شعور محبف عندما أجلس أروع ساعات يومي على الأشياء التي تفتح أفواهها، كل واحد يريد أن تقصم من عمري فصمة، ويجب علي أن أفعل كل تلك الأشياء لأني يحب أن أعيش! وعندما أنتهي من ترتب «الأجندة الحمراء» الكافلة للعيش أتساءل: ما معنى أن أعيش؟ كل شيء في حياتي «مستعجل» أشعر دائماً أنني كذلك!

أعطي الملابس للمعسلة «مستعجل»، وأخذها بعد يومين! أدخل المطعم فأطلب أسرع شيء يمكن تحضيره لأني مستعجل، أركب السيارة و«أعشّ القير» قبل التشغيل لأني مستعجل! أتم فأصط الساعة بعد ساعة ونصف لأني مستعجل. أخرج من المنزل فلا أغلق الباب لأني مستعجل. حتى ابني الصغير «تكور» عندما جاء صغيراً دون الوزن الطبيعي قالوا: «شكلك ذيك البيلة كنت مستعجل!».

الحياة تشعرني بالعجدة لكثرة ما سأغتنني، الحياة كل يوم تندل «ألف مهمة محملة» حتى صابونة «بابايا» صدر لها خمسة أنواع خلال شهر ويسمي أن أعرفها جيداً لكي لا أعود للبصيلة خمس مرات! حبيب ميمونة السبيلالك وحدوا به حناح ذبابة في هيئة الغذاء والدواء وشروا البحر، وكان علي أن أعلم به قبل أن يخبرني بذلك الصيدلي وأنا أعطيه الحسب مستعجلاً، ثم

أخرج فتصادفي فداء عدد رب الصيدليه فأعجب بها على طريقة
الشعراء «الإلهام التبك أوي»، وأقرب فيها بيتين من الشعر في
نفسى وأنا متجه للسيارة مستمتعاً!

كلم استيقظت لأنني يجب أن أذهب إلى العمل قبل إقفال
دعتر الحضور علمت أنني مستعبد وأنني أحمل في صدري سدة
زرعها غيري تحكمني أكثر مما أحكم أن نفسي! يصعب نصف
اليوم وأن أمارس ما يطلبه الآخرون وأفقد ما يملئني علي من له
الحق في استهلاك عمري في هذه الفترة من اليوم، ثم أخرج
وأنا أفكر فيما تبقى من مهام وفيما سيأتي!

لا ترال «أشياء الآخرين» تلتهم اهتمامي فتصنيء الإشارة
الصوتية وبدأ صراخ مبهات السيارات ورائي فأفئق من غيبوبة
الانراعات التي لا ناقة لي فيها ولا حمل فأتدرك المرور إلى
الشارع الآخر الذي يمر بالنقالة والمغسلة ودكان الخضار لي
أعرفها جيداً فتثير بداحلي تفاصيل أخرى لا تعنيني في شيء!

مكوبات الحلوى التي ستصنعها زوجتي لساء لا يعنيني في
شيء، ونوبي الذي يحب أن يكوى لدى المغسلة لكي أقبل به
الزملاء عدداً في العمل أو أذهب به إلى حفلة صفراء كاداة!
محل الحصار الذي يرودنا بالحضرات التي ستتهي إلى العمامة

قبل أكلها لأن أمر البيت ليس لديهم من الوقت ما يكفي لممارسة الحياة الطبيعية! أمر بورشة إلى جانب محطة الوقود فتذكر أن علي إصلاح سيارتي وكم سيكلفني إصلاحها لكي أذهب بها إلى العمل وأحضر بها المناسبات التي لا أحبها، وأحضر بها الأعراض المنزلية التي لا أحتاجها!

أدخل إلى بيتي، وإذا بكل آلة تفتح فمها كفم القرش الأرق تريد أن تلتهم حظه ساعات من عمري، الكمبيوتر والتلفزيون والحوال الذي سأصعبه على العام لأبدأ تأليف الأكاديب لكل متص يعتقد أنني قرده الخاص لدي عليه أن يصنع به الهجة والسعادة كلما مل من حياته الباهتة وحلس ينعم أفعه! ون يمر الوقت الكثير حتى أحد نفسي قد أعمي علي في حالة يوم هي بحد ذاتها وسيلة للقيام بكرة وتكرار ما قد حدث من حديد!

ليت اديد قايصوا أعمارنا بقطع حديد الحوالات واسيفرات والكميونرات والساتات وكيف نستخدم كل ذلك وكيف نصعبه تركوا لب شيئاً من أعمارنا ليس دحلاً في اممتلكات المنقولة وعمر المنقولة ليتهم علموا أنهم فنلونا قبل أن يمحون الحياة المتحصرة التي يمتون علينا بها! هذه الحضارة التي حولتني إلى ساعه زمنية تتحرك مكوناتها باستمرار لكي

يصبطل الآخرون أمورهم ثم يقلبونها على رأسها في كل مره
سحرك الرمال من حديد، ولا يهتمهم أن تقف هي على رأسها
طالما أن ذلك يوفر لهم النقاء على أقدامهم بشكل صحيح!

لا أذكر متى أحر مره جلست إلى آدمي أتحدث إليه وأن لا
أريد أن أتحدث لأحد سواه! نعيش اليوم وبداخلنا شعور يقول:
«أنت هي مهمة مستعجلة» فتجدنا متحفزين ومتأهبين نستظر الأمر
والتوجيه أو نحدد تفكر في الريال والآلة، وقد ننحو حذاء
طهر لم يبلغ السنة إلى قصة كفاح وبصل من شوارع المدينة
وأزقة الأسواق فيها.

لقد ضل الإنسان الطريق إلى داه «هارباً بي السحر»
فصار لا يدري ما هو المهم وما هو الأهم، وما الذي يلزمه
والذي لا يلزمه، وأرحى وكاء كبس العمر لينتشر هكذا بلا روية
ولا حكمة كم ينثر لنام المتصدقين دقل اسمر على هارعه
لطريق إلى الحرم!

الناس في نظر هذا الإنسان الحديد في صورة رمادية، لا
أعداء ولا أصدقاء، ولكنهم «وصلات كهربائية» قد سحناهم
لتوصيل التيار في يوم ما لأمر ما، لا أكثر!

التورط بالمساة وبالحياة الاجتماعية الدمة هو في الحقيقة

مقبرة الموهمة وبالدت المواهب التي تحتج إلى تفرّغ وصياح
حرّ الأشخاص الذين يملكون إلى التحقيق مع الحياة بدلاً من
العيش فيها هم آخر من يصلح لمهمة «الحياة الاعتيادية»^١
نعم يا فؤاد!....

الحال كما قلت تماماً!..

ها أذ أفلم أضعار الحلم ليكون بليلاً يعرد في قفص!....
ها أنا أزع في صدري حقولاً شاسعة من «نباتات الطل»
التي لا تفكر في الشمس يوماً، أحلم بمفردي وأعيش مع
الجميع بقسٍ يحول إلى «عدّة محتفنة» تنورم كل يوم ولا نعم
بها أحدا!..

ذهبت لأحصر الرغبة فأكلني الحزن يا فؤاد!..



المركز هو اللا شيء!!

«لا يجب الخلط بين المدينة المصيصة والمدينة المأمرة بالسكارات»

أرسطو



أجلس في بيت الشَّعر في اصحراء لا شيء يراودني عن
روحي وعقلي! كل شيء في الصحراء يقول لي: «أنت لك!».
الحال المحطة بي والمسحاح المقلعة حوي تحصع سكوها
المهيب مصعية لأي حركة مني! أنا عنصر الحياة الأهم في
الصحراء وهذا ما يجعلني مميزاً ها!

أركب سيربي وأدور في الففار حولي! لا شيء يعني شيئاً
غير نفسه! فراعني يرعى لعنم، والكلب يحرسها، والشيء
تبحث عن العشب لتعيش. لا شيء في الصحراء يحمل أن
يكون أكثر من شيء في اوقت نفسه حتى ابشر الذين أراهم
يمرون حولي أعرف ماذا يريدون. ليس ها رور اسدية وفصم
أهلها المقيت، جيبهم ومكرهم ووجوههم لأحرى التي يحملونها
وسبرون في شوارع كقبيلة موقوتة مخاة في لعة أطفال!

في الليل لا شيء يتحدث إلا حطام الهشم ينتهب في
حمرة لمار، ولا رنحة نحتل نحاشيش رأسي إلا دحان البار
المصمم بالعادية واشات! كلاب تسح بعيداً بعيداً حلف الحبل
المحاور وسماء صافية والريح شه ساكنة وأنا كقطرة حر أزرق
اندلقت على صفحه بيضاء غير مسطرة، كل المدى لي، وكل
الحرية لي، ولا لون، لا لوني!

تنتهي المدة المحددة للبقاء في الصحراء فأركب سيارتي

لأعود للمدينة! المخيمات المجاورة في العراء البكر لا شك أنها مخيمات بدو، أعلم تماماً ماذا يصنعون هنا. أمر بسيارتي عليها وأمشي قرابة خمسين كيلو متراً باتجاه الطريق السريع، وكلما اقتربت من المدينة تغيرت الأشياء! على مشارف المدينة بيوت شعر وخيام، ولكن يا ترى لماذا نُصِبت؟! أهى للدعارة أم لتخزين المخدرات أم لممارسة السكر أم هي للنزهة؟! نعم! هذه هي المدينة. كل شيء حين يقترب منها ينشطى ويتحول إلى أشياء كثيرة!

كلما اقتربت من مركز المدينة فقدت الأشياء ثباتها في عيني. الناس هنا مذاهب شتى، وأنواع البشر هنا أكثر من أنواع السمك في المحيط! أنا الآن لا شيء! أنا الآن حشرة صغيرة في مستنقع مليء بالحشرات! أنا الآن هاجس وحيد خائف، هو هاجس القدرة على البقاء! أنا الآن مركز كبير للتسوق، كُتب فوق مدخله «كل شيء بريالين!»، مكتظ ومتنوع وتافه!

أنا الآن في مركز المدينة!...

لا أدري لماذا كلما خنقتني ضوضاء المدن تذكرت الروائي المشهور باولو كويلو الذي كان مدمناً وحبساً في مستشفى الأمراض العقلية لمرتين، حيث أودعه أبوه هناك. كويلو التحق بالمذهب الهيبى، وكتب القصائد للفرق الغنائية، وقرأ في الفلسفة

والتاريخ، وفي نهاية الأمر تعلم السحر!

بعد أن قرأت روايته الشهيرة الخيميائي التي وزع منها أكثر من مائة وخمسين مليون نسخة بمختلف اللغات، أدركت أن هذا الرجل لديه صفاء ذهني واضح لا يتناسب مع تاريخه المضطرب.

قرأت مذكرات كويلو، مذكرات مسافر حاج، ولمست كم جاهد ليتخلص من حالة التشنت الذهني التي كان يعيشها، وذكر أن ما توصل إليه كان قناعة شخصية أكثر منه أي شيء آخر. ذكر في مذكراته قصيدة تقول ترجمة بعض ما جاء فيها: «الإطار الفارغ الذي أوصلك لهدفك البعيد لم يكن ليوصلك لو لم يكن محشواً بالفراغ!». نعم، هذه هي الفلسفة الشخصية التي توصل إليها بعد طول صراع. فلسفة أنك كلما أفرغت نفسك من الداخل من زحام الأفكار والحياة، كلما استطعت أن تجد نفسك أكثر.

يخدعنا تنوع الحياة كثيراً، ويوهمنا أنه هو الثراء، ولكن حين نتورط فيه نجد أننا نعيش في شتات داخلي لا هدف له سوى التنقل التائه من اهتمام إلى آخر. هذا هو الثراء الفارغ، أن تكون محشواً كمخزن منزل رجل عازب بكل شيء تحتاجه، أو لا تحتاجه وحين تحتاج شيئاً ما بعينه ستبحث عنه ولن تجده!

في الحقيقة لا يمكن للإنسان أن يعيش كل أدوار البشر،
ولا أن يمارس كل اهتمامات الحياة، والذين يحددون أهدافهم
ويعيشون لأجلها هم وحدهم من يشعرون بأنهم يتحركون
ويتطورون بشكل يجلب الطمأنينة والثقة في النفس. هذا هو
الفراغ الثري، أن يكون بداخلك من الفسحة ما يكفي للشعور
بالهدوء وتمييز قناعاتك وترتيبها ومراقبتها والاعتناء بها براحة
وطمأنينة.

الفوضى الخلقة قد تكون نظرية منتجة على مستوى
المجتمع ولكنها في «الداخل النفسي» لن تكون إلا فوضى
مدمرة يقتل بعضها بعضاً. المدن بورصات كبيرة لرؤوس البشر!
هي تعاملنا كذلك ونحن نشعر فيها بأننا كذلك! تذبذب
واضطراب وتوتر يترقب باستمرار!

ثم أعود لتلك القصيدة من جديد أدندن بها....

: «الإطار الفارغ الذي أوصلك لهدفك البعيد....

لم يكن ليوصلك لو لم يكن محشواً بالفراغ!»....

ولكن قلب المدينة لا يسمع!!

* * *

